حفني مصطفى حفني

غروب وجنون

إهـــــداء

* * *

* إلى أمي " مصر " :

  التى إن شُغلتُ بالخلدُ عنها

  نازعتنى إليها فى الخلدِ نفسى

* إلى أختى الحبيبة " وفاء " التى التحفها ثرى مصر منذ بضعة أيام ففرح هو برؤيتها ، وترك لنـــا حـــزن الفراق ، إلا أننا احتسبناها عند رب عظيم إلى أن تقوم الساعة .

* إلى أمي الطيبة الطاهرة التى أرى حزن رحيل حشاشة كبدها رغم صمتها الذى يتهادى إلى من قلبـــها قبـــل عيونها، فلا أملك إلا ضمها إلى صدرى داعيـــا ربـــى وربها أن يفرغ عليها صبره فتجف عيناها عن النحيب مابقى لى ولها فى دنيا الأفول.

* إلى ابنى وابنتى وزوجتى وإخوتى .

* إلى الشُعثِ الغُبر المساكين .

* إلى الأطباء النفسيين الذين لايألون جـــهدا إلا قدمـــوه عن طيب خاطر .

* إلى كل هؤلاء وإلى القراء الأعزاء أرفع هذا الكتاب .

المؤلف

تمهيد

تُعد ظاهرة الجنون وفقدان العقل من الظواهر التى تدمى لها القلوب ، وتدمع لها العيون ٠٠ وتعـددت الآراء حول نشأة هذه الظاهرة ، فمنها من أدان الأسرة ، ومنـها من أدان المدرسة ، وحسبنا أنهما يزعمـان أن الأسـرة والمدرسة هما اللذان يدفعان بالرجال والنساء إلى سـاحة المجتمع ٠٠٠

ويأتى زعـم هـؤلاء وهـؤلاء مـن منطلـق أن الذى يفقد دفء الأسرة فإنه يفقد نصف عقله ، فإذا مـا فقد الأسرة والمدرسة معا فيكون قد فقد عقله ومجتمعـه ٠فما الضير إذاً أن تتحد قلوب وعقول الآباء والمعلميـن من أجل عقول وليدة فرحة مازالت تخطو أولى خطواتـها فى الحياة ، عقول تأمل فى الشروق وترفـض الغـروب والأفول٠

مقدمة :-

لم يُخلق الإنسان الذى كرمه الله ليعيش وحيدا شريدا منفردا ينتظر اللقمة ، بل خلق ليحيا حياة سعيدة هانئة ، يزرع ليأكل الآخرون ، ويزرع الآخرون ليأكل ، ينثر تارة الحب والورود فيحصد البغض والحزن ، وتارة أخرى يجنى الحب والسرور ...

ولايخالجنا الشك أن الإنسان من خلال حياته اليومية الزاخرة بالحيوية والنشاط ينفعل ليعكس لنا هو وأفراد مجتمعه واقع حياتنا بآمالها وآلامها وصورها المتعددة ، فهى... أى الحياة تصور سعادة البعض ، وشقاء البعض الآخر منبئة أن ذلك راجع ولاشك إلى مجموعة من المفاهيم والسلوك السائدة بيننا ، ولو أن الإنسان علم عن يقين أن بين يديه وبداخله عوامل سعادته أو شقائه وبمقدوره أن ينحو أى منحى منهما لفعل وصولا إلى استقراره الذى تنسجه خطواتنا وعلاقاتنا ...

إنها بما تعكس من سلبيات وايجابيات لمواقفنا واتجاهاتنا وسلوكياتنا لمن قبيل التواصى بيننا فى مسار محاولاتنا لتصحيح أوضاعنا وعلاقاتنا ...

لكن ثمة ظاهرة صارت تؤرق الجميع وهـــى :
هؤلاء الشعث الغــبر الذيــن فقــدوا عقولــهم وهــم
يســيرون بيننـــا لايلـــوون علـــى شـــىء ، وهـــؤلاء
الذين يحبون الانزواء والانطواء والحديث مع أنفســهم
أكثر من الحديث مـــع ذويـــهم حتـــى تحســبهم منــذ
الوهلة الأولى زاهدين ، وماهم بـــالزاهدين، ولكنـــهم
مرضى ، أو بصورة أكثر وضوحا فى الطريـــق إلـــى
المرض العضال ...

وللبحث فى خضم هذه الظاهرة المخيفة قمنـــا
بالبحث والدراسة لوضع النقط على الحـــروف لعلنـــا
نصل إلى البداية لنعرف النهاية ، أو نصل إلى الـــداء
حتى نصف الدواء فى سهولة ويسر ...

ولأهمية هذه الظاهرة قمنا بتقسيم أفراد المجتمع
إلى عدة فئات ، كل فئة من هذه الفئـــات لـــها رأيـــها
الخاص بها .. فإحدى هذه الفئـــات ذهبـــت إلـــى أن
الضوضاء هى السبب المباشر وراء هـــذه الظـــاهرة
الخطيرة ، ومنها من أدان التليفزيون ، ومن الفئـــات
من ذهبت إلى أن ارتفـــاع مســتوى المعيشـــة مـــع
قلة الدخل هو السبب الجوهرى الـــذى غربـــت معـــه

العقول ، ومن الفئات من كانت لها رأى يختلف عـــن الرأيين الســـابقين حتـــى تــرى أفرادهــا يشـــيرون بأصابع الاتهام إلى المرأة قائلين : إنـــها وراء مـــاحل بعقول الرجال ...

والكل من هذه الفئات له حجته التـــى يمزجـــها بالبراهين والأدلة ، ونحن فى هذا الكتاب لانحقر مـــن رأى طرحته إحدى هذه الفئات ، بل قمنا بطرح جميعها ، وحتى نكون منصفين جادين رأينا أنه من الضـــرورة أن ندير الحوار مع الأطباء والمتخصصين فـــى هـــذا المجال لنتعرف منهم على الأســـباب الحقيقيـــة وراء نشوء هذه الظاهرة ، هل هى الضوضاء كما زعمـــت إحدى الفئات ؟ ،أم هو الدخل الذى لايتناسب البتة مـــع ارتفاع مستوى المعيشة ؟ ، أم هى المـــرأة ؟ ، أم أن كل هذه الأراء براء مما حل بالرجـــال ؟ ، وأن هنـــاك ثمة أسباب أخرى نحن فى غفلة عنها ؟ ...

عزيزى القارىء كل هذه الأراء تناولها هذا الكتاب ...

وأنه ليسعدنا نحن الأدباء والأطباء أن يكون لك عزيزى القارىء رأى تضيفه إلـــى تلـــك الأراء التـــى تناولها الكتاب ، وهذا يأتى من منطلق أننا وأنت نعمل

لندفـــع هــذا الخطـــر الداهـــم عـــن هـــؤلاء الذيـــن أصابهم المرض العضال ، أو هؤلاء الذين يسيرون فى ركابهم ‥ فمن يدرى لعلنا نســـتطيع أن نوقـــد لـــهم نبراسا أو قنديلا يهديهم إلى الطريق ، آنـــذاك نســـعد لرجوعهم ، وهذا هو مبتغانا ...

والله ولى التوفيق ....

المؤلف

* * * *

ثمة ظاهرة خطيرة تدمى لـــها القلــوب وتدمــع لها العيون حين رؤيتها، ولكونها كذلك فهــــى تستحق أن تتناولها الأقلام بالبحث والدراسة ، كمـــا تســتوجب ألا نغض الطرف عنها قيد أنملـــة مـــن ليـــل أو نـــهار لأنها تمس الرجل أحد طرفـــى الحيـــاة ، رب الأســـرة صاحب القوامة ، أوبالأحرى أحـــد عمودى البيـــت ، الذى إذا ما التفت لتفاهـــات الأمـــانى وصغـــار الأمور ، وحمل حملا ثقيلا ينوء عن حملـــه عشـــرات الرجـــال مجتمعين ، أصابه الاكتئاب والهوس وصـــار مجنونـــا بعـــد عقل واختل حينذاك ميزان الأسرة ، وذبل الـــزرع بعد طول ينوع ...

وقد تشرئب الأعناق وتتطاول ، وتتسع حدقـــات العيون ، وتهتز الأحبال الصوتية ، ويتحرك اللسان فـــى الفم فيقول : " تالله وما هى هذه الظاهرة ياترى ، أهـــى الفاقة ؟ أم هو العبوس بعد بشاشة ، أم هى الشـــيخوخة فى ميعة الشباب ..

وأقـــول هـــهنا بلســـان صـــدوق وبأمانـــــة القلـــم لا هذه ولا هذا ولا تلك أقصـــد ، إنمـــا أقصـــد ظـــاهرة وجود كم ليس بالقليل من الرجال يسيرون فى الشـــوارع والميادين ، تراهم شعثا غبرا يحيط بهم المجـــــــهول من كـــل جانــــب ، عيونـــهم زائغـــة تنظـــر فيمـــا

حولها وقد فقدت التمييز ، وجوههم تعلوهـــا الابتســـامة العفوية أحيانا ، وأخرى نجدها مقفرة عابسة ٠٠٠

وأنت وإن أمعنت النظر الى ابتســاماتهم وجدتـــها ابتسامة تتمخض عن سخرية حتى لكأننى أراك وأســـمعك وأنت تزعم أنها إبتسامات لا تصدر إلا من جهابذة عالمين ببواطـــن الأمـــور٠٠ أمـــا هـــم فـــى حقيقـــة الأمـــــر فلا أحسبنى أبالغ إذا قلت أن كلـــــهم يشـــعرون وكأنـــهم يعيشون على أرض كوكب آخـــر غـــير كوكـــب الأرض، وأن ما يتحرك أمامهم وعـــن يمينـــهم وعـــن شـــمالهم من بشـــر وســـيارات مـــاهى إلا أشـــباحا انبثقـــت مـــن العدم للنيل منهم ٠٠٠

وإن تعمدت الوقوف على حقيقة ما عالقة بذهنـــك فاقتربت من أحدهم خلسة دون أن تفزعه برؤيتـــه إيـــاك لرأيته ينظر إلى الأفق البعيد ولســـان حالـــه يقـــول فـــى غصص :

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انْجلى
بصبح وما الإصباحُ منـــكَ بأمثـــل

ولكنك ياهذا رغم محاولاتك الجادة الدؤوبـــة لـــن تستطيع البتة أن تسبر فى أغواره لأن ما بداخله مبـــهم لا يعلمه إلا الله٠٠٠

على الجانب الآخر نرى من هم أقل درجــــة مــن هؤلاء وهم الرجال الذيــن نراهــم يغــذون فــى الســير بين الناس بمفردهم وهــم يرتــدون الملابــس النظيفــة الأنيقة نوعا ، نراهم يتحدثون مع أنفسهم بصوت مسموع حديثا مفهوما إلى حد كبير ، فحواه الهم الحزن والشــجن على ما آل إليه حالهم الاجتمــاعى المتدنــى ، والمثــير للدهشة أنهم عندما يتحدثون فى سيرهم فهم لا يلتفتــون إلى المارة ، ولا حتى يستوقفون أحدهم ويروحون يبثــون إلى سمعه فيما وجع قلوبهم ، وفيما عبوس عقولهم بعــد طول سرور وسعادة ...

وما يسترعى الشفقة والرحمة حقا على هؤلاء أنك لوقمت واستوقفت أحدهم ورحت تتحدث معه لوجدته سويا إلى حد كبير ، يعى ما يسمع ، ويتحدث بما يفهم ، اللــهم إلا من سقطات تجعلك آنذاك تجزم أنــــه علــى قـــاب قوسين أو أدنــى للحاق بركب هؤلاء الشعث الغبر ...

وهناك صنـــف آخــر مــن الرجـــالات تحســبهم منذ الوهلة الأولى زاهديــن فضلــوا العــزوف والعزلــة عن ترف الحيـــاة الصـــاخب ، كمـــا وأنـــهم يفضلــون العزوف والعزلة عن الحياة الأسرية ، والحقيقة والواقــع أنهم ليسوا بزاهدين بل هم مرضى يبحثون عــن المـــاء فى الصخرة الصماء ، يسبحون فـــى بحــــــور

الوهـــم فلا يبدوا منهم لا مفرق الشعرولا أخمص القـدم ، تراهم يفضلون الصمت عـــن الكـــلام ··· وإذا ســـولت لـــــك نفسك الطموحة الحديث مع أحدهم وجدته يلـتزم الصمت ، ويدير رأسه غـــير عـــابىء بمـــا تقـــول ··· وبحسبه أنه يشعر فى قراره نفسه أنه إذا ما أقدم علـــــى الحديث معك أومع غيرك فسوف يهوى فى غيابات الجب، أو هكذا يصور له شيطانه المارد اللئيم الذى لا يبارحــــه ساعة فى ليل أو ساعة فى نهار ·

والعجب كل العجب إن ســـاقتك قدمـــاك ذات يـــوم ورأيت أحد هؤلاء الرجال يجلس منفردا كالطائر الجريـــح فى ظل شجرة وارفة فى حديقة عامة وعرفت أنــــه دائـــم الحضور كل يوم للجلوس أسفل تلــــك الشـــجرة وقتـــذاك سوف تشير إليه وتقول فى دهشة : " وما الضـــير فـــى ذلك ؟ إنه يأتى إلى ههنا لينال قسطا من الراحة بعد طـول عناء كما يفعل الكثيرون ، أو تقول : إنه يأتى ليســـتمتع بجمال الطبيعة بعيدا عن الضوضاء ، أو تقول : أنه فنـــان جاء ينظر إلى الطبيعة ليصورها نثرا أو شعرا أو رســـما بعد أن يمتزج بها خياله ··· أو لعله هـــو ذاك الطـــائر الجريح العليل الذى تخلف عن سربه لأنـــــه لا يقـــوى على الطيران ···

وفى حقيقة الأمر أنه لا هـــذا ولا ذاك ، بـــل هـــو إنسان تعرض لصدمة عنيفة عقدت لسانه وأفقدته صوابه

إلى حين ، آنذاك رأى أو هداه عقلـــه أن يجلـــس أســـفل الشجرة الظليلة لأنها خرساء بكماء لا تنطق ببنت شـــفة مع هذا الذى يجلس تحتها، أو ذاك الذى يعتلى فروعـــها فى خفة ورشاقة ليختلس بعضا من ثمارها فيأتى عليـــها فى نهم بالهناة والشفاة والسعادة تترسم على وجهه ... أوجاء ليجلس تحت الشجرة لأنه يعلم علـــم اليقيـــن أن الأشجار لاتتحدث ، لكنها ولا شك فـــى ذلـــك تســـبح الله فاطرالسموات والأرض ، ولو أن إنسانا له أذنـــا أرنـــب، وعينا صقر فلن يسمع تسبيحها ، ولن يرى أفواهها وهى ترنم بالتسبيح ... ولكن ما أدرانا فلعـــل حفيفـــها هـــو تسبيحها ونحـــن فى غفلة عن ذلك ، أتدرون لماذا ؟ لأنه حديث من كانت نبتة ثم صارت شجرة ، يـــــوم أذن الله لهـــا إذنـــا قدريا أن تصير شجرة فصارت...

لكن ثمة عدة تساؤلات فى هذا المقام تثير اللعاب، وتتطاول فور سماعها الأعناق ، وتتطير منـــها الألبـــاب وهى : كيف وصل هؤلاء الرجال إلى هذه الحالة المتدنيـــة من المرض العضال ، أو بالأحرى تلك الشـــهب والحمـــم التى تتمخض اليوم أو غدا عن السم الذى يسير بداخـــل عقول هؤلاء المساكين ليقودهم فى النهاية إلى المجـــهول المعتم، إلى ذاك الكابوس العابس أوله ، المتجهم أوسطه، الغارب آخره ...

وكعادة البشر على مر الأزمان والعصور عند مشاهدتهم لظاهرة ما ، أوعند مواجهتهم لمشكلة ملأت الأجواء وترددت على كل لسان لدهشتها ، فإنهم وبدون مقدمات اللهم إلا حبهم للكلام والثرثرة يتحولون إلى فلاسفة ، ولا شك ههنا أن أكثرهم يخطىء وقليلهم يصيب عندما يضع يديه على الداء ...

ولما كنا في هذا الكتاب بصدد الوقوف على خيوط ظاهرة " جنون الرجال " التي تفشت داخل المجتمع المصرى بصورة واضحة وملموسة حتى صارت مع الأيام حديث الركبان ، رأينا أنه من الضرورة أن نقسم أفراد المجتمع إلى فئات على أن نستعرض كل رأى على حدة وصولا أو استخلاصا لجل الآراء لعلنا إن فعلنا ذلك نصل إلى الداء آنذاك نصف الدواء وهو ولا مراء غايتنا التى ننشدها...

رأى المتفيقهين :

يقول المتفيقهون أن الضوضاء هى السبب المباشر وراء ما حل بهؤلاء الرجال فى ذهاب عقولهم ، وحجتهم فى ذلك أن الضوضاء تعد ألد أعداء إنسان العصر الحديث وخاصة عندما تتجاوز الحد الذى لا يؤثر على صحة الانسان وهو (أقل من ٩٠ ديسبل) ...

ولو دار بينك وبين هؤلاء المتفيقهون حوارا كـــان قوامه الدهشة مما يزعمون ، ولرأيتهم يقولون لـــك فـــى هدوء : " أو تعلم ياهذا أن الضوضاء هذه تصيب الإنسان الذى يتعرض لها بالصمم ، وتعمل على ارتفـــاع نســبة الكولسترول فى دم الإنســـان، وتفقــده شـــهيته للطعـــام أوالشراب ، ومن يدرى لعلها تكون وراء عـــدم تحصيـــل الطلاب لعلومهم وما إلى ذلك ٠٠٠

فلما يجدوك فاغرا فاهك فى دهشة وأنـــت تقـــول حينذاك اللهـــم نعم ، يشيرون إليك فى سخرية ويقولون لك فى تعجب : " وما الغرابة إذا فى أن تكون الضوضـــاء هىالسبب المباشروراء تقلب العقـــول أو بـــالأحرى إزاء ما حل بهؤلاء الذين يسيرون بيننا ، ننظـــر إليـــهم فـــى شفقة ونحن نقلب الأكف بعضها فـــوق بعــض والحـــزن يعتصر القلوب ٠

ولكن بماذا يفيد حزننا عليهم ونحـــن لا نســتطيع البتة أن ندفع عنهم ذاك الخطر الذى يحيـــق بـــهم مـــن كل جانب ، وكأن بيننا وبينهم أســـوارا عاليـــة ، وبحـــرا لجا ، فلا الأسوار يمكننا صعودهـــا ، ولا البحـــر يمكننـــا اجتيازه ٠٠٠ أما هم فينظرون إلينا بعيون دامعة حزينـــة تنطق بالبؤس والشقاء ولا حول ولا قوة إلا بالله ٠٠٠

رأى المتنطعين :

ولو أنك تركت المتفيقهين لوجدت المتنطعين الذين يبادرونك قائلين فى تعصب وحدة شديدين : إنه التليفزيون ذاك الساحرالذى أدى بهؤلاء الرجال إلى الجنون وكفى... فلما يصيبك الدوار بعد الدهشة وتبادرهم مستفسرا فتقول " كيف والصندوق السحرى يأتى بعجب العجاب على صحف مصنوعة من الذهب والفضة من كل أنحاء العالم " ؟ أليس كذلك ياقوم ؟ فلماذا إذا نظلم التلفاز اليوم ونزعم أنه جاء بالسيل العرم وحول الأسوياء إلى مرضى ؟ اللهم إن لم ترحمنا فمن بنا راحم " ؟

وما تفتأ أن تنتهى من كلماتك تلك ، وقبل أن تلتقط الأنفاس إلا وتراهم يقذفونك بوابل من الحمم البركانية فى حمأة وثورة فيقولون معقبين : " أنت أعمى ياهذا أم بصير ؟ وإن كنت أعمى فلا نحسبك أطرشا ، أين أنت يا أخانا من هذا الكم الهائل من التلوث السمعى الصادر عن تلك الأغانى التى يطلقون عليها " الأغانى الهبابية " عفوا " الشبابية " ، أين مذاقها؟ أليست تصيبك بالغم ، وضيق الصدر وما شابه ذلك ؟

ناهيك عن الأفلام والمسلسلات التى تصيب المشاهد لها بالغثة والتبلد من كثرة تكرارها لأنها

لاتراعى الناحية المزاجية والنفسية للمشاهد ... فهى تخرجه تارة من الفكاهة إلى التجهم والعبوس والألم ، وأخرى من الخيال العلمى إلى الرياضة، عندئذ لا يجد أمامه ثمة فرصة لالتقاط أنفاسه لأنه أضحى مدمنا أبله لا يقوى على التفكير فى مشاكل حياته البيتية أو تلك العملية، لأنه سارع فأنفق كل قواه العقلية من خلال مداومته على المشاهدة دون أن يفرق بين النافع والضار ، بين ما يجعله يقبل على الحياة فى نهم، وبين ما يشيط منه العقل، فكان لزاما أن تزداد مشاكل أسرته اليوم تلو الآخر، فصار يواجه مشاكله بضعف وفتور غير عابىء بشررها المتطاير، كهذا الذى يقحم نفسه فى أتون النار غير عابىء بلهيبها ، أو كالذى يواجه أسدا فى البرية وهو أعزلا حتى من هراوة يدفع بها الخطر بعيدا عنه ...

<u>رأى المتعلمين :</u>

أما المتعلمون فلهم رأى آخر يختلف تماما عن الرأيين السابقين فهم يقولون: " إن زيادة متطلبات المعيشة مع قلة الدخل ، وشعور هؤلاء الرجال بالحرمان نتيجة لذلك ، ثمة شىء آخر وهو أن طبيعة أو سمة هؤلاء الرجال الخجل ، علاوة على أنهم يطلقون لآذانهم العنان نتيجة الحرمان فيسمعون آنذاك من هواة الكلام بداع وبغير داع عن النعيم وترف العيش الذى يعيشون فيه هم وذويهم ... لاشك أن

كل هذا أدى بهم إلى عبوس قلوبهم الذى يتمخض عنه فيما بعد حالة من الاكتئاب التى التى تؤدى بهم فى نهاية المطاف إلى الجنون (ذهاب العقول)٠٠٠

وأنت إذا طلبت من المتعلمين وألححت فى طلبك أن يفصحوا لك عما فى جعابهم وما يدور بأخلادهم لقالوا لك فى مكر ودهاء : " ويحك ياهذا !! أو تعلم أن الإنسان يشعر بالسعادة تتناثر من حوله كرحيق الأزهار مع المال ؟ كما يشعر وكأن كل ما يدور حوله يبتسم له ويضحك إن زاد ونما ، والويل ثم الويل له إن قل المال أو نقص حينذاك يجف لعابه ويشعر بالغصة والامتعاض ٠٠٠أما إذا صار لاقدر الله خالى الوفاض فلا أحسبنا نراه غير متجهم يدور حول نفسه وهو يقلب كفيه فى حسرة ، وسرعان ما تميد الأرض من تحت قدميه ويطيش سهمه دوما أو إلى حين ٠٠٠

فإن أبكاك حديثهم وقلت لهم بصوت تتموج فى مقاطعه معانى اليأس والقنوط : " ولكن كلنا يعلم أن المال ظل يزيد أو ينحسر ، فلماذا إذا نشعر بالحسرة والألم إن فقدناه يوما أو بعض يوم ونحن نعلم علم اليقين أن طريقه إلى الزوال؟ ورغم أنك القائل أن المال ظل يزيد وينحسر ، إلا أنك سرعان ما تتوقف عن الحديث فجأة لعدة لحظات وكأنك وقعت على

سر الكون وفى سرعة تجـــــد نفسك تسألهم فتقـــول : " رباه وهل يشعر فئة من الناس بالسعادة والسرور إذا ما افتقروا إلى المال؟ هيهات أن نجد أفرادا من بين الناس لا يحبون المال ولا يقيمون له وزنــا ، وإن كـانوا بـالفعل يعيشون بيننا وليسوا بملائكة ، فمن هم يا ترى ؟

فما تفتأ تنتهى مـن حديثـك معـهم إلا وتجدهـم يقهقهون بصوت أجش وكأنهم العالمون ببواطن الأمـــور فيقولون وهم يعودون بأجسادهم إلى الوراء : " نعم هـــو كما قلت ياهذا ظل يزيد وينقص ، ولكن أو تعلم أن المــال هو الذى يدفع بالآلات فى المصـــانع ، ويفتـح الأبـواب الموصدة ، ناهيك على أنه يجعلك تعيـــش بيـن النـــاس جميلا وسيم الوجه وإن كنت دميما ؟ ووالله الذى نفســك وأنفسنا بيده لمن الناس من لا يعبأون بالمال ولا يقيمـون له وزنا أتدرى من هـــم ؟ إنـــهم العلمـــاء ، والأدبـــاء ، والمفكرون ، أتدرى لماذا ؟ لأنهم يعشقون العلـم عشـــق عنتر لعبله ، عشق الظمآن إلى الماء البارد فـــى اليـوم القائظ ، عشق الأعمى إلى النور ... ساعتئذ لا تـــرى عيونهـــــــم غير العلم ســـبيلا ، وإذا مـــا افتقـدوه سويعات قليلة صاروا عميانـــا وهـم مبصـرون ، ودب المرض فى أجسادهم بعد طول صحة ، أتـــدرى لمـــاذا ؟ لأنهم يعلمون أن العلم يبقى بقاء الدهر ، وأن القلم هـــو أول مخلوقات الله كتـــب عندمـــا أذن لـــه الله أن يكتـــب

مقدرات العباد ، وأنه الآن يكتب ما نمليه عليه لينير العقول ويضيء السبل ، فكيف بهم يتركونه بعد ذلك وفيه عزتهم ؟ كيف يتركونه إلى غيره وهم يعلمون أنه سر الحياة أول مخلوقات الله ؟

فإن جاهدوك وأرهقوك وأقنعوك أن رأيهم هذا هو الصواب فيما آل إليه حال الرجال الشعث الغبر أوبمن هم على شاكلتهم ، وجدت نفسك تقف مبهورا ، لاتنبث ببنت شفة وسرعان ما تجدك تبتعد عنهم وحديثك مع نفسك الأمارة بالسوء مازال يتردد داخل جوفك بصوت غير مسموع فيقول : " ياحسرتاه على العباد ، اختل الميزان ، وهوت قمم الجبال ، وارتفعت الأمواج على الشطآن ، وصار عبيد الأمس أسياد اليوم ، وأسياد الأمس عبيد اليوم والغد ...

رأى الحصفاء :

ولعل أصحاب الرأى من الحصفاء قد وضعوا أيديهم على هذا الداء الذى أودى بعقول هؤلاء الرجال فى غياهب الظلمة وجعلهم يسيرون بين الناس بأجسادهم فقط بعدما فقدوا صوابهم فى بحر الحياة ...

والحصفاء يقولون : " إن أردتم أن تعرفوا الــــداء فعليكم بالبحث عنه فى باب المرأة ، فصل الحب والعاطفة وما يثلثهما ...

ولو أن أحد هؤلاء الحصفاء أفصح لنا عن رأيـــه لقال فى بادىء الأمر فى حلم ووداعة : " لا يخالجنا الشك قيد أنملة أن المرأة هى الوجه المشرق للحياة ، إن أشرق محياها على أحد الدور تراقصت الجـــدران مـــن البشـــر وخيمت ونسجت السعـــــــادة نسيجـــــها ، وغلفـــت القلوب والعقول بمذاق المن والسلوى ، وإن قـــدر الإلـــه لهذا المحيا فتجهم تهدمت عندئذ الجدران الصلبة من نـــار وسخط الغضب المنصب على الجدران ، وعرف الخـــوف طريقه إلى القلوب الآمنة ، وخرج البشر من بين الأطـــلال شعثا غبرا لا يلوون على شـــىء اللـــهم إلا الســـير فـــى الدروب والعطوف وهم يترنحون كالســـكارى ومـــا هـــم بالسكارى، ولكنه أفول المرأة بعد طول شروق ...

ثم يستطرد الحصفاء فى الحديث فيقولون : " نعلـم علم اليقين أن للمرأة شأوا عظيما فى حياة الرجل والدليل أنه ارتبط بها ارتباطا وثيقا ليس وليد اليوم أو الأمـــس ، بل تمخضت عنه الجبال والوديان منذ أن خلق الله تعـــالى الأرض وجعلها مستقرا لآدم وحواء وذريتهما من بعدهمـا إلى أن تقوم الساعة .

ولا أحسب أن الحصفاء يجدون راحة أو يلقون بالا لمن يدعون أن الرجل يعشق المرأة ويدنو منها حتى تسنح له الفرصة ليقضى منها وطرا لتستمر الحياة ، فالأمر عندهم أكبر وأعمق من هذا ... والحق الذى ينطوى عن العقل عندهم أن تقول : " أن التى حملت الرجل فى بطنها تسعة أشهر هى المرأة ، والتى دفعته من رحمها بإذن الله إلى الحياة هى المرأة ، والتى أرضعته لبنها وحنانها وقامت على رعايته منذ نعومة أظفاره هى المرأة ، والتى فتنته بقدها وجمالها وجعلته يهيم بها ويفتتن فينظم فيها الشعر والنثر فيعدد فيهما محاسنها ومفاتنها هى المرأة ، ولم تهدأ للرجل ثائرة يوما أو بعض يوم إلا عند ما جمعه والمرأة السقف والجدران فصارت زوجته وحليلته ، أو بالأحرى صارت عينيه اللتان يرى بهما ، ويديه اللتان يبطش بهما ، وقدميه اللتان يسير بهما ، ولسانه الذى يتحدث به ، وقلبه النابض بين جنبيه ...

فإن قلنا أن خبرة الرجل تفوق خبرة ولده الصغير بمراحل عديدة ، وقلنا أن خبرة المعلم وعلمه يجاوزان خبرة التلميذ عدة مرات ، وإن قلنا أن المرأة تملك مفاتيح قلوب وعقول الرجال ، آنذاك لانجد غضاضة البتة فى أن نقول : " وما الضير إذا أن تكون النساء هن أحد الأسباب المباشرة والجوهرية فى اختلال عقول الرجال ،

والدلالة فى ذلك هو أن من تملك شغاف القلوب ومفـــاتيح العقول ، من أرضعت ووعت كل خطوة خطاها الرجل منــذ المهد حتى صار رجلا لقادرة أن تحطمه وتذهب بعقلــه إذا تعلق قلبه بها ، وزاد حبه لها وفاض حتى غمــر البقـــاع من حولها ، إلا أنه بالرغم من ذلك لم يصل إلى تلافيـــف عقلها وشغاف قلبها . . .

فإن غلقت القلوب بعد هـــذا أبوابـــها ، وصـــدأت العقول عن فهم المطروح ، فـــهيا بنـــا الـــى المصحـــات النفسية نسأل ، فان تعسر علينا ذلك ، فها هـــم الأهــل والأحباب حافظى تاريخ هؤلاء الرجال عـــن ظـــهر قلـــب نسألهم ، فإن لم يصدقوننا القول ولن يصدقوننا ، حينـذاك لم يعد أمامنا سبيلا أعظم وأصدق من كتـــاب الله الـــذى ﴿ لا يأتِهِ الباطلُ من بينِ يديه ولا منْ خلفه﴾ ومن بين كلمات القرآن التامات ســــوف نعلـــم أن أول جريمـــة ارتكبت على وجه الأرض كانت بسبب إمـــرأة جميلـــة ، وذلك عندما عمت الغشاوة عينى قابيل فضمر الحقد والغل لأخيه هابيل فأرداه قتيلا ليفوز بالمرأة الجميلة . . . وهذا سيدنا يوسف عليه السلام الذى هتف من أعمـــاق قلبـــه العامر بحب الله فقال :

﴿ رَبِ السجنُ أحبُّ إلىَّ ممَّا يدْعُوننى إليهِ ﴾
سورة يوسف ، الآية (٣٣)

فلما استجاب الله تعالى لدعـــاء ســيدنا يوســف الصديق عليه السلام مكث فى السجن عدة سنوات وهـــو قريرالعين ، أى أن يوسف فضل السجن على ألا يقع فــى حبائل المرأة فيصير عندئذ من الجاهلين ...

إذا لا غرابة حين نقول : " أن المرأة التى تفعـــل بالرجل كل هذه الأحابيل لقادرة لاشك على أن تصعد بـــه إلى قمم الجبال، أوتهوى به إلى الحضيض ، لقـــادرة أن تعيش معه فى الجنة ، وأن تخرجه منها إن أرادت ذلــك ، لقادرة أن تخلب لبه وتعصف به من العلم إلى الجـــهل ، آنذاك يلملم خلجاته وينزح تاركا المدينـــة الـــى الفــلاة ، لقادرة أن تلعب برأسه فيفور فورة النوار ، وما الجنـــون إلا بعد الفوار وكفى ...

* * *

ولو أننـــا تناولنـــا الآراء الســـابقة بشـــىء مـــن التمحيص لتنقيتها من الشوائب العالقة بسطورها ، وأمعنا بعد ذلك النظر إليها بعين المبصر المتأمل لوجدنا أن كـــل رأى من هذه الأراء ينطوى فى جانب منه على الصـــواب وفى الآخر على الحيف...

فمن يزعمون أن التلوث السمعى يصيب الإنســـان بالتوتر وعدم الاتزان ، فلا شك أنهم قد أصابوا فى جـــانب وأخفقوا فى الآخر ، ولعل حجتهم جاءت لما نظروا إلـــى المدن الكبيرة فوجدوها تعج بألوان مختلفة من الضجيـــج الذى يؤثر بشكل أو بآخر على صحة الإنسان ...

والذى يؤخذ عليهم أنهم أطلقوا لرأيـــهم العمـــوم كالذين قالوا أن الخوف مرض وصمتوا ، ولو أنهم علموا أن الخوف شعور ينتاب كل إنسان ، يزيد عنـــد البعـــض وينقص عند الآخر، ولكن عندما يحـــدث التطـــرف فـــى الشعور بالخوف آنذاك يعد الإنسان مريضا ... على ذلك نستطيع القول أن الشعور بالضوضاء الوقتية أو الدائمـــة تتفاوت فى تأثيرها من شخص إلى آخـــر فمثـــلا عنـــد الإنسان عصبى المزاج تصيبه بالتوتر الوقتى أو الدائـــم وتخرجه عن المألوف ، ويرى هذا واضحا عنـــد هـــؤلاء الذين يعملون بعقولهم كالمحاسبين أو الأدباء أو المفكرين

وقد يظن البعض أن الأشخاص العاديين لايلقون للضوضاء بالا، والحقيقة أنهم يشعرون ويتألمون عند تعرضهم لها ولكن ليس بالكم والكيف الذى عند عصبى المزاج ...

والعلم وضح لنا هذه الجزئية بالذات عندما قال العلماء: أن الإنسان بمقدوره أن يتكيف أويتعود أو ينسى الضوضاء الدائمة حوله كيف ؟ قالوا : " أن هناك جزءا بالمخ يخلص الإنسان من هذه الضوضاء الدائمة بأن يجعله يتناساها إن أراد ذلك ويتذكرها إن أراد أن يتذكرها ، دليل ذلك أن الذى فى حجرته ساعة تعمل بالبندول، أو هذا الذى يقطن قريبا من مصنع نسيج ، أو ذاك الذى يسكن قريباً من محطة قطار ، فلا شك ههنا أن الثلاثة يألفون ، أو بالأحرى تعودوا على هذه الضوضاء التى تسمعها آذانهم خلال الليل والنهار ، فى حين أن القادمين إليهم لا يقوون على سماع مثل هذه الضوضاء ، وبالتالى لا يستطيعون المكوث فى هذه الأماكن لأكثر من بضع دقائق معدودات ... الأغرب من هذا وذاك أن هناك بعض الأشخاص لا تغفو عيونهم ولا يغطون فى نوم عميق إلا عندما يديرون المذياع أو التلفاز وهم رقود...

ولعلنى أجزم على أن الذين بنوا رأيهم فقـــالوا أن الضوضاء هى السبب فى ذهاب عقول الرجال من الباديـــة أو الريف ٠٠٠ فأما النازحون من الباديـــة فـــتراهم قـــد نظروا فيما حولهم فلم يجدوا أثرا للضوضاء هناك ، كمـــا وجدوا البشر والسعادة تعلوان كل الوجـــوه من خـــلال الحيـــاة البدويـــة البسـيطة حينـــذاك عقـــدوا المقارنـــة بـــيـــن الحياة بالبادية وبيـــن تلـــك الحيـــاة بـــالمدن الصناعية ٠٠٠ ومن يدرى لعلهم تنقلوا بيـــن الروابـــى والوديان فلم تقع أعينهم إلا على الشياة تأكل من خشـــلش الأرض ، أو على هذا الراعى الذى يجلس منفردا يعـــزف على الناى تارة للشياة ، وأخرى للطبيعة الجميلـــة مـــن حوله ، ولم تقع أعينهم البتة على شخص يتحـــدث مـــع الأرياح أو مع رابية من الروابى ٠٠٠

ولعل هناك ثمة تشابه بين الحياة بالبادية والحيـــاة بالريف وإن كنت أرى أن الحياة بالريف قد تغـــيرت فـــى معالمها وشكلها عما كانت مـــن قبـــل ، اللـــهم إلا مـــن المساحات الخضراء ، خاصة بعد هجرة الفلاح لـــلأرض بعدما كان يخلع شبابه على بساطها ويتعهدها بالرعايـــة آناء الليل وأطراف النهار ٠٠ فـــإذا بـــه فجـــأة يـــترك عروسه الحسناء موات بوار أو يزفها إلى غيره بـــالبيع ويرحل فى رحلة البحث عن المـــال ، فلمـــا يخفـــق فـــى جنى المال يعود والدمع يراود أجفانه فلا يجـــد عروســـه

على الجانب الآخر نرى الفلاحين يسهبون فى الفرجة على التلفاز لساعات متأخرة من الليل ضاربين بالبكور الذى ألفوه عرض الحائط ، وبفرعونيتهم التليدة فى الزراعة عرض البحر ، ومن ثمة لا يساورنا الشك ههنا أن الفلاح قديما بالرغم من فقره المدجع ، وتناوله الأعواد اليابسة التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، إلا أنه كان قرير العين ، كثير الحمد والابتهال لله رب العالمين ٠٠٠ فلما دارت رحى الأيام عن التخمة أضحى قليل الحمد ، قليل الابتهال ، عصبى المزاج حتى صارت الحسرة والندامة على ما فات سمتيه ، ولا أحسبنى أبالغ إذا قلت أن الحسرة والندامة هما الطريقان المؤديان دائما إلى فقدان العقل عند بنى البشر فإن قلنا أن فلاح الأمس لم يصبه دوار العقل إلابنسبة ضئيلة لا تذكر فإن الأيام المقبلة سوف تتمخض عن زيادة تلك النسبة ، وذلك لأن الذى يفقد أرضه وعمله اللذان كان يشعر معهما بالعزة والفخار ، لأصابته لعنة الأجداد والأحفاد ، حينذاك يهرم ويشيخ ويفقد ثوبه ، ومن يفقد ثوبه لاشك أنه يفقد عقله بعد قليل ويصبح فى الغابرين ٠٠٠

لكن ثمة عدة محاور لايحب أن نغفلها، بل يجب أن نلقى حولها الضوء ولنا أن نأخذ بها أو نطرحها أرضا وهى :-

- أن الضوضاء لايتأذى منها الرجال وحدهم ، بل يتأذى منها أيضا النساء والأطفال والشيوخ وكل كائن حى له عين يرى بها وأذن يسمع بها ٠
- وإذا كان فى وسط هذا الخضم الهائل من الضوضاء التى تحيط بنا من كل حدب وصوب نرى المتفوقين ، والعلماء والمفكرين ٠
- وإن قلنا أن التعرض للضوضاء الدائمة أو المؤقتة قد تصيب البعض بالاضطراب والقلق ، وإذا علمنا أن القلق هذا يعد أحد الأسباب الناجمة عن الضوضاء ، وأن الذى يصاب به يعتبر أحد نزلاء المصحات النفسية وإن كان يعيش خارجها٠

والآن إذا قمنا بتقسيم المجتمع الى فريقين ، الأول يقول: أن الضوضاء أحد الأسباب الأساسية التى تؤدى الى القلق ثم إلى المرض النفسى ، والثانى يقول : أن الضوضاء لاعلاقة لها من قريب أو بعيد بالأمراض النفسية فإلى أى الفريقين تنضم؟ أإلى الفريق الأول ؟ أم الفريق الثانى ؟ ٠٠٠

* * *

وها هى سفينة البحث عن الحقيقـــة تصـل بنـــا إلى شاطىء المتنطعين ليدور بيننا وبينهم الحـــوار فـــى حيدة تامة ، فلما دار الحوار رأيناهم مـــازالوا يصـــرون ويشيرون إلى التلفاز فى حدة قائلين : " ويح الصنـــدوق السحرى إنـــه أزاغ العيـــون وقلـــب موازيـــن العقـــول واضطربت بعد سكون ، فبعد الغـــروب جـــاء الشـــروق فلما دارت عجلة الأيام صـــدأت وأصابـــها الأفـــول بعـــد طول شروق " ...

فلما أصابتنا الغصة من كلمات المتنطعين واتسعت حدقات عيوننا بعد دهشة صرخنا فى وجوهـــهم ورحنـــا نسألهم قائلين : " مسكين التلفاز ! أويكفينـــا ويكفيكـــم أنه يجوب الأقطار والقارات فى همة العفاريت والشـياطين فيأتى لكـــم بأخبـــار النـــابغين ؟ فلمـــاذا الظلـــم اليـــوم وهو الشمعة التى توقد فى الليل والنهار فتضـــىء القفـــر وتجعلها سبيلا ؟ أو تعلمون أن التلفاز ضم إلـــى صـــدره الطفل اليتيم ، وجعل التلفاز من نفسه أباه بعد أن فقد أباه إلى أبد الآبدين ؟ ..

كفكف المتنطعون دموعهم المنهمرة على وجناتهم وقالوا وهم خافضو الرؤوس بصوت تخاله أنينا صـــادرا من معداتهم : " أوحسبتم أننا نمقته ؟..

فلما قلنا لهم : أم ماذا ؟ قالوا : بلا ، بل نشـــفق على الأبناء منه لأنه لايفرق بين صغير وكبـــير ، فـــهو ينقلنا من عالم إلى آخر دون مقدمات فترانا ساعتئذ كالذى يعطونه الأمل وسرعان ماتوصد فى وجهه الأبواب ، فلمـــا يفقد الأمل يتسرب إلى داخله اليأس ، ومايفتأ العقـــل أن يتسرب إليه هو الآخر اليأس فيصيبه الجمود الذى يســبق الجنون ...

فلما فرغوا من حديثهم بادرناهم فى لهفة ســائلين : " أتقصدون من وراء كلماتكم هذه أن التلفـــاز يحمـــل الخير والشر ولاتدرون أيهما يتغلب على الآخر ، الخير أم الشر ؟ فلما قالوا فى حزن : اللهم نعم ، قلنا ومـــاالضير فى ذلك فمثله مثل الإنسان ...

آنذاك قال المتنطعون معقبين : " ولكن الإنســـان إذا ما اقترف الشر وقف مع نفسه يلومها ويؤنبها فإذا به يتوب ويقلع عن الشر ، لكننا نسأل أنفسنا كيـــف يتـــوب التلفاز ويقلع قبل الفوت ، أتدرون كيف أيها الباحثون عن حقائق الأمور....

قلنا : اللهم لا ، وقتئذ قال المتنطعون : " ولكننـــا ندرى ...

قلنا : وماالذى تدرونه ولا ندريـــه نحـــن ؟ قولـــوا لنـــا ياعالمين ببواطن الأمور ...

اعتدل المتنطعون وتطاولت أعناقهم فخرا وتيـها ، وقالوا : " عندما تخصص للأخبار قنـــاة ، ولـلأدب قنـاة ، وللدين قناة ، وللرياضة قناة ، وللشباب قنـاة ، وللمرأة والرجل رفيقى الحياة قناة ، عند ذلك يدور الحوار بين أفراد الأسرة والمجتمع ، ويسارع الكل مـن فـوره ليروى ماراق له فى قناته المفضلة للآخرين ، أوتـدرون أنه ينقصنا الحوار الواعى بين أفـراد المجتمـع داخـل الأسرة وخارجها ؟

لما اعتلت الدهشة وجوهنـا قلنـا مستفسـرين : " ولكن هذا أمر يتطلب وجود جهازين أو ثلاثـة لـدى كل أسرة ، لأن مايحبه هذا لايروق لذاك ... وما الضير أن يظل الوضع كما هو عليـه ونتعلـم ونعلـم أبناءنـا أن التلفاز له مفتاح للتشـغيل إن رغبنـا فـى الـترويح عن أنفسنا أدرناه ، وإن لم نرغب فلانقترب منـه علـى غرار الحديث الشريف : (فليقل خيرا أو فليصمت)...

أسرع المتنطعون إلينا وقالوا فى حدة : إذا سيبقى الوضع على ماهو عليه ، ولاتسألون من اليوم فصـاعدا ماذا حدث للعقول بعد طول شروق ...

فلما مرت اللحظات بطيئة متثاقلة أراد المتنطعون أن يلطفوا من حدتها فقالوا : " إليكم نسوق هذه القصة لعلكم تؤيدوننا الرأى ، فلما قلنا لهم إلينا بالقصة قالوا : " فى إحدى الولايات الأمريكية قبض على شاب بتهمة قتل جارته العجوز، فلما واجهته النيابة بفعلته الشنعاء اعترف ومثل أمامهم وقائع الجريمة ...

ووقف الشاب القاتل فى قفص الاتهام ، ووقف المحامى يدافع عن موكله الشاب أمام هيئة المحكمة فقال فى جرأة : " موكلى برىء من التهمة المنسوبة إليه، فلما اعتلت الدهشة وجوه كل من ممثل النيابة وهيئة المحكمة قال القاضى فى تبرم مستفسرا : " إن لم يكن الشاب هو مرتكب الجريمة ، فمن هو ياترى مرتكب الجريمة ؟ .. أوتعلم أن الشاب اعترف فى التحقيق أمامنا بارتكابه الجريمة" ؟ ...

آنذاك قال المحامى مدافعا عن الشاب : " سيادة القاضى أخلوا سبيل موكلى وضعوا التلفاز مكانه فهو الذى ارتكب الجريمة " ..

فلما ثارت ثائرة القاضى قال للمحامى : " كيف ؟ وأنت تعلم أن التلفاز ليس له يدا تبطش وتقتل ؟ ..)

قال المحامى معقبا : " فى اليوم الذى ارتكب فيه موكلــى الجريمة شاهد فى التلفاز أربعة مسلسلات فى كل مسلسـل جريمة قتل ، آنذاك انفعل موكلى مع أحداث المسلســـلات الأربعة وفور انتهائها أصابه الهوس والجنـــون الوقتـــى فارتكب جريمته . . .

ولما فرغ المتنطعون من سرد قصتهم المؤلمة انصرفنـــا بعيدا عنهم واستقللنا ســـفينتنا عـــائدين الأدراج ونحـــن لاندرى أى الفريقين على صواب أهم أم نحن! . . .

* * *

والآن تصل بنا ذات الألواح بعد رحلة البحث الطويلة إلى رأى المتعلمين ، ولو عقبنا على ما جاء فيه لوجدنا أن ظاهره الصواب ، أما فحواه فلا ينطلى البتة إلا عن الحيف والفتور ، وبخاصة إذا ما سبرنا أغواره وقمنا بتحليله التحليل الدقيق الذى لا ينطوى على المواربة ٠

فهم يقولون فى سياق رأيهم : " أن الحاجة الملحة ، أو بالأحرى زيادة أعباء المعيشة مع قلة الدخل تفقد الرجال الذين لهم القوامة توازنهم ، وتؤدى بهم إلى فقدان عقولهم بين الفينة والفينة ٠٠٠

ولو أنهم عادوا بالذاكرة إلى عشرات السنين لوجدوا أن قانون تنظيم النسل كان لم يولد بعد ، وأن حسانين ومحمدين كانا مازالا صبيين صغيرين يلهوان فى دروب القرية ، وأن الدكتورة كريمة مختار كانت مازالت طالبة لم تتخرج بعد فى كلية الطب ، وهذا يعنى أن عدد أفراد الأسرة فى ذلك الوقت كان كبيرا ، فى المقابل نجد أن دخل الرجل وهو العائل الوحيد للأسرة الكبيرة كان زهيدا ، وعلى الرغم من هذا لم نسمع قط أن أحد الأباء فى الماضى فقد عقله رغم الحرمان الذى عاشه هو وأسرته ورغم ضيق ذات اليد ، بل رأيناهم كادحين ،

ناصحين ، فلاحين يتعهدون الأعواد الصغيرة بالرعاية المتكاملة تارة ، وأخرى بالصبر والجلد اللذان ليس لهما مثيل . . .

وأقسم بالله الذى وضع الأرض للأنام ، أننا كنا نسمع الرجل يقول لصاحبه أو لجاره أو لبعض ذويه بثقة المؤمن الواثق بمجىء الشروق بعد الأفول : " صبرا جميلا والله المستعان ، فغدا إن شاء الله نحصد الثمار " . . . وتحقق حلمهم بإذن الله تعالى ، وكأنهم كانوا أصحاب بصيرة واعية تختلف عن بصيرة الرجال فى هذه الأيام . . والدليل أن تخرج فى مدارسهم الجهابذة والأفذاذ ، والعظماء رغم قلة دخلهم وزيادة الأعباء المعيشية اليوم تلو الآخر . . . ولا أحسبنى أبالغ إذا قلت أن أحد هؤلاء الرجال لم يسرق ، ولم ينصب ، ولم يضرب أخماسا فى أسداس . . .

أما المرأة فى هذه الحقبة من الزمان فبالرغم من أنها ربة منزل أمية أو تكاد، إلا أننا لم نرها إلا وزيرة اقتصاد ناجحة استطاعت أن تصنع الرجال ، كما استطاعت بمهارة فائقة لا تقوى عليها الآن عدة نساء مجتمعات أن تكون مدبرة تجتاز الشهر بسلام وأمان دون أن تنغص على الرجل عيشته ، أو تذهب بعقله ، أو تسأل خلق الله أعطوها أو منعوها . . .

ولعلنا إن سبرنا فى أغوار الحقبة سـالفة الذكـر لرأينا أن دور الرجل كان ينحصر فى الخروج إلى العمـل لجلب الرزق المقدر الذى يقيم به أوده وأود أفراد أسـرته ، وإسداء النصيحة للأبناء كبيرهم وصغـيرهم حتـى لا يجنح أحدهم عن الطريق القويم ... أمـا دور المـرأة فكان أكثر فاعلية : فهى وزيرة اقتصـاد علـى مسـتوى الأسرة ، بجانب ذلك هى الأم الحنون العطوف التى تقـدم العون والمشورة لكل أفراد الأسرة وهى قريرة العيـن ، والزوجة المطيعة الوفية التى تحـترم سـعى زوجـها ، فهاهى تقترب منه وتربت على كتفه فتمحو حزنه، وتدفـع عنه ما يعكر صفوه ، وفى أحيان كثيرة نجدهـا الطبيبـة التى تداوى وجع القلوب والعقول، فكان لزاما أن يتمخض عن كل هذا الحب الذى لا يعرف التوتر والجنون طريقـا إليه...

فلما انسلخ الليل من النهار ، والنهار مـن الليـل وتعاقبت السنون ونالت المرأة حظا وفيرا مـن التعليـم ، وتبوأت أعلى المناصب ، ووقفت جنبا إلى جنـب بجـوار الرجل فى ميدان العمل تنافسه ، وحدث الانفتاح العـالمى الذى أطل علينا مـن خـلال التلفـاز ووسـائل الاعـلام الأخرى ، ساعتئذ أسرعت المرأة قبـل الرجـل وأخـذت منه الحفنة والحفنتين ... وبحسبها أنـها تـزودت من الانفتاح العـالمى بما تحتاج إليـه بالفعل وبمـا

لاتحتاج إليه ، أو بالأحرى بما يتماشى مع طبيعتها كامرأة شرقية وبما لا يتماشى البتة ، وبحسبها أنها ادعت حينذاك أنها فعلت ذلك لتطور نفسها بما ينعكس بالايجاب على كل أفراد الأسرة ··· والحقيقة أنها أقدمت على ذلك حتى تستحوذ على كل أسلحة القتال المشروعة وغير المشروعة من أجل أن تسابق الرجل سباق الوحوش إن كان لا يربطها بالرجل ثمة رباط مقدس ، أما إذا كان يربطها بالرجل الرباط المقدس فهو النزال الذى ينتهى فى الغالب الأعم لصالح المرأة التى تدرك بعاقلتها مواطن القوة والضعف عند الرجل ···

ولا شك أن المرأة عندما تفعل ذلك فى غفلة منها فهى لا مراء تفقد ظل الرجل الوارف ، وأمانه ومعقله وحبه ، أما الرجل فيفقد كل شىء ، يفقد المرأة وسرعان ما يفقد عقله ، آنذاك لا يسعنا إلا أن نقول للبشرية جمعاء : " حين يخلو القلب من اليقين ، وتخلوالنفس من الثقة ، يتحول الشخص إلى شىء أشبه بالمكان المهجور الذى تأوى إليه الطيور العشواء ، والسؤال : " من منا يحب أن يتحول إلى هذا الشىء البشع ؟ أيحب الرجل ذلك ؟ أم أن المرأة هى التى تحب هذا وتدفع بالرجل إلىهذا المجهول لتجعله يعلم : أنه لاحياة بلا امرأة ، ولا امرأة بلا رجل ، ولا رجل بلا امرأة ···

وللحق والانصاف نقول : أن الأكواخ التى نسجت حولها العنكبوت نسيجها فى الماضى قد تمخضت اليوم عن العلماء والمفكرين ..

وإن قلنا اليوم أن الفقر والعوز لم يقفا البتة فى طريق النابغين والمجتهدين ، بل رأيناهم تارة يسابقون الفقر ويسابقهم، وأخرى يشهرون سلاحهم فى وجهه إلى أن انتصروا عليه فى النهاية عندما تحلوا بالصبر والجلد والعلم...

لذا أرانى لأميل لهذا الرأى وإن كنت لا أرفضه رفضا تاما ، وذلك لأنى أرى ظاهره الصواب ، أما باطنه فهو مزيجا من الصواب واللاصواب ، وقد يكون عدم ميلى لهذا الرأى أننى أؤمن إيمانا قاطعا أن المال ظل يزيد وينحسر ، وأنه لاييأس من قلته إلا يؤوس عبوس ضعيف الايمان ضعيف الشخصية ، أما أصحاب النفوس الكبيرة فلا يلقون للمال بالا ، زاد أو نقص ...

* * *

ولعلنى أجزم أن الحصفاء أصحاب الرأى السديد يقدرون للمرأة دورها فى الحياة إلا أنهم لا يعفونها مما حدث لهؤلاء الشعث الغبر من الرجال ... وجاء رأيهم واضحا كل الوضوح لأنهم يعلمون عن يقين أن الحياة لا تستقيم إلا فى وجود المرأة بجوار الرجل داخل البيت وخارجه ، فهى الحبيبة المتحابة والرفيقة المخلصة ، إذا أحبت الرجل أنارت له الطريق مخافة أن يتعثر ، وكانت الينبوع الذى ينبعث منه الرقة والأنوثة الفياضة اللذان يلقيان السرور أمامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله ... أما إذا كرهت المرأة الرجل عصبت عينيها ، وأدارت ظهرها ،، ونسجت خيوطها ، وألقت بحبالها ، وأطاعت شيطانها وأغضبت ربها ، حينذاك تدمى القلوب ، وتغرب العقول ، وتبلغ الروح الحلقوم ، وتخرب البيوت...

والآن وبعد أن حصحص الحق أقول بلسان صدوق لا يكذب ولا يتجمل أن الحصفاء نظروا فيما حولهم بعيون مبصرة وعقول أمينة فى معرفة حقائق الأمور ... وبينا هم ينظرون وجدوا أشعث أغبر من هؤلاء الذين تدمى لهم القلوب جزعا على ما آل إليه حاله ، فشاهدوه يولول بعين دامعة حزينة ، فاقتربوا منه وحاولوا جاهدين أن يسبروا فى أغواره لمعرفة أسراره ، فلما وقفوا قبالته أجهش بالبكاء وقال

بصوت تتموج فى مقاطعه معانى اليأس والقنوط : " كنت زوجا وفيا مخلصا أهرق عرق جبينى وغلة اجتهادى بين يدى زوجتى متحملا مشقة الحياة ، ووعورة الدروب ، وعناء الغربة ، يكفينى من الحياة شربة ماء وكسرة خبز، إلا أننى صحوت ذات صباح أسبح ربى كما تفعل الورقاء التى ألفت الوقوف على نافذة غرفتى متخذة منه محرابا ومصلى لها ، فلم أجد مالى ووجدت زوجتى المصونة لها منقار النسر ومخالب النمر ، وأنياب الأسد ولا أدرى ماذا حدث لى بعد ذلك...

ثم يشير الأشعث الأغبر إلى نفسه ويقول مرة أخرى فى جزع : " أأنا هذا الإنسان الذى كان يطل إلى الحياة إطلالة المتفائل الواثق فيمن حوله ؟ أم أنا ذاك الحمل الوديع المسالم الذى ألقى بنفسه فى عرين الأسدة بمحض إرادته ، فلما نهشت ذراعه قال إنها المداعبة قبل الغرام ، ولما أجثمت على جسمه قال ياويلتى هذه نهايتى " ...

توقفت الكلمات وتناثرت على شفتى الأشعث الأغبر وكأنه فقد النطق وسرعان ما زاغت عيناه هنا وهناك ، وصرخ صرخة شقت الفضاء من حوله ، بعدها تعالت ضحكاته المتوالية ، وأنت إذا نظرت إليه وقتذاك فإنك لا تدرى أهو

الضحك تعبير الفرحة ، أم هــو البكــاء علامـــة الحـــزن والجنون ٠٠٠ وسرعان ما يـــترك المســكين الحصفـــاء ويسير بين الخلائق يترنح كالمسكور ، أو لعله هذا الطائر الذى أصابه الرصاص فسقط أرضا من عليائه يتخبط فـــى السياج وهو ينتظر المنية بين الفينة والفينة ٠٠٠

ومن يدرى لعل الحصفاء قرأوا وقائع تلك الحادثـــة المروعة ، أو شـــاهدوها رأى العيـــان أو تنـــاهت إلـــى أسماعهم بدايتها ونهايتها عندما : أحـــب أحـــد الضبـــاط المقاتلين فتاة من بين الفتيات فطرق بابها ، وعقد قرانـــها آنذاك خفق قلبها طربـــا ، وطـــار صوابـــها مـــن شـــدة الفرحة ٠٠٠

فلما ترك الضابط عروسه بعدما تعلق بـــها قلبـــه أيما تعلق وسافر إلى أرض الفيروز وما زالـــت صـــورة عروسه الفاتنة الجميلة تتراءى أمام عينيـــه ٠٠٠ فلمـــا وطأت قدماه أرض سيناء وشـــاهد عـــن بعـــد الأعـــداء وهم ينعمون بظل الوطن الوارف شعر بالغصة ، فلما نظر حوله سمع صفير الهواء فظنه بكاء الجبال والروابـــى ، ساعتئذ التمعت عيناه بالعبرات وخرجـــت الكلمـــات مـــن فيه متقطعه حزينـــة ، فلمـــا تشـــخصت أمامـــه بشـــرا قال مستفسرا لها : " فيم البكاء أيتها الجبال والروابـــى ؟ فلما حمل الهواء إليه حديثـــهم شهـــق شهقة المحب

الولهان وقال فى غصص: " فلتكفكفوا دموعكــــم ، فــهى والذى سيركم جبالا وروابى وسيرنى إنسانا للغمرات ثـــم ينجلين ، ولتعلموا يامن تسبحون الله آناء الليل وأطـــراف النهــار دون أن نسمع تسبيحكم : أنه لا أب لـــى ولا أم ولا عروس إلا عندما أذود وأدفع عنكـــم مـــن تمقتـــون رؤيتهم ... وبحسبى أنكم تعلمون أن الذود عن الوطـــن ما هو إلا الذود عن الأهل والعرض والشرف ...

ومضى الضابط الهمام يعد العدة هو ورفاقه وهـــو لايحذر الموت ولا يهاب الردى حتى صارت الشهادة قـــاب قوسين أو أدنى منه ، لكنها أخطأته وأصابت غيره ...

فلما عم النصر بإذن الله كل البطـــاح والأوديـــة ، وشاهد علم الوطن يعلو خفاقا، ورأى الفرحة والســـعادة تعلوان هامات الجبال والروابى بعد طول عبوس تذكر من فوره عروسه فخفق قلبه بين جنبيه وتحرق شوقا لرؤيتها حينذاك غادر أرض النصر وتوجه حيث توجـــد عروســـه ... فلما وطأت قدماه أرض القاهرة الســـاحرة وشـــاهد أهلها وشاهدوه بدأ ذاك المشهد الذى أبكاه وأسعده فى آن واحد عندما أخذ أهل الوطن يزفونـــه ويحملونـــه علـــى الأعناق مهللين مكبرين وكأنهم أتوا من كل حدب وصـوب يزفونه لبيت عروسه ...

فلما انقضى الموكب الذى فاق حساب الحاسبين وتجاوز خيال المتخيلين ذهب الضابط يحدوه الأمل إلى بيت عروسه ، فطرق بابه فلم يجدها فىانتظاره رغم علمها بحضوره ، وقتئذ اعتلت الدهشة وجه الضابط وسرت الرعشة فى أوصاله ، فلما اقترب من أم عروسه وسألها فى لهفة فوجدها تلتزم الصمت تارة وأخرى المراوغة فساوره الشك وعبس وجهه بعد طول فرحة ... فلما عاود السؤال على مسامع المرأة فى جدية وحزم ، لم تجد المرأة الأم بدا ولا غضاضة فقالت له بصوت جهورى فى تبجح وسخرية : " إنها لا تحبك ولا تكن لك أدنى الحب ، بل تحب غيرك " ...

ثار وشاط الضابط وجن جنونه وغلى الدم فى عروقه واقترب من المرأة يسأل عن عروسه وأين يجدها الآن ، آنذاك تراقصت الكلمات على شفتى المرأة وقالت : معه فى دار السينما وأسمتها له ...

شعر الضابط أن كلمات الأم لها مرارة الحنظل ، كما وأن لها دويا يفوق صوت الطائرة النفاثة ، وأشد فتكا من دانة المدفع ، ولم يشعر أهو يقف على الأرض ، أم أنها تميد من تحت قدميه ؟ حينذاك تذكر حديث الجبال والروابى والشهادة فى سبيل الوطن التى كانت على مقربة منه ، كما

تذكر أحداث الموكب الرهيب وحسن المقابلة والحفاوة التى تلقاها من أبناء الوطن فور عودته بعد الانتصار والشروق... فلما انعقد لسانه وفقد صوابه أخرج مسدسه وأطلق من فوهته طلقة أردت المرأة قتيلة تسبح فى دمائها...

وخرج من بيت عروسه ثائرا يرافقه الشيطان المارد اللئيم وأتباعه ، وعلى باب دار السينما وقف يترقب وينظر والشيطان خلفه يدفعه دفعا للأخذ بالثأر ، حتى تخال الشيطان قد تحدث مع الضابط فقال له ناصحا : " أقتلها أيها الضابط الشجاع كما قتلت أعداء الوطن البارحة، أو تعلم يا مسكين أن عروسك وصديقها وأمها هم الأعداء الحقيقيون للوطن ولك أنت على وجه الخصوص"...

فلما استولت كلمات الشيطان وسكنت تلافيف لب المسكين ، وشاهد عروسه تتأبط ذراع صديقها وهما فى غمرة السعادة ، لم يحتمل قلبه وعقله هذا المشهد المشين ، فصرخ صرخة المكلوب أو لعلها صرخة المجنون ، ولم يدر إلا وهو يصوب مسدسه إلى قلبيهما فأودى بحياتهما وأسقطهما أرضا بلا حراك يسبحان فى بحر الخيانة الأحمر القانى ، وبدلا

من أن يفر بعيدا عن مسرح الجريمة انحنى انحناءة النشوان يأخذ من دمائهما ويلطخ هدومه وهو يضحك ضحكات هستيرية مجنونة لفتت أنظار الناظرين . . .

ولم تمض اللهم سوى أيام معدودات إلا وكان الرجل يجلس مع الغافلين يعانى من ظلام العقل ومن حبائل النساء إذا مس حبهم شغاف قلوبنا وتلافيف عقولنا ؟ . . .

ولعلنى ههنا أجد أنه من الضرورة أن أزيد إلى رأى الحصفاء ثمة كلمات ، أو بالأحرى ثمة ظاهرة حار عقلى فى تحليلها وهى : هؤلاء النسوة اللاتى أراهن وأسمعهن عبر شاشات التلفاز أو من خلال الأبواق والمذياع ، ومن خلال وسائل الإعلام المقروءة يصحن ويهتفن وتدعى بعضهن أنهن حتى الآن لم يحصلن على حقوقهن كاملة ليتساوين مع الرجال . . . ولا أدرى أتبحث المرأة بالفعل عن حقوقها كما تزعم ؟ أم أنها تبحث عن السلاح الفتاك الذى تقهر وتفتك به الرجل؟ أو تعلم المرأة أن الرجل الذى تريد أن تقهره وتفتك به هو أبوها وأخوها وابنها وخليلها ؟ أم أنها تسعى من وراء ذلك سعى الوحوش فى البرية لتصبح مقاليد الأمور فى يدها ، حينذاك تطعم الرجل إن شاءت ذلك ، وتركله بقدميها إن رغبت فى ذلك ؟

أليس يكفى امرأة القـــرن الواحــد والعشـــرين أو بالأحرى المرأة فى ظل الإسلام الوضاء ما حصلت عليـــه بشرع الله بعد أن كانت نسيا منسيا ، بعد أن كـــانت أمـــة وأسيرة فى بيت الرجل ، أو لايكفيها فى زماننا هذا أنـــها أضحت الوزيرة والسفيرة والطبيبة والمحاميـــة وعضـــو مجلس الشعب والشورى وما إلى ذلك ، أم مازالت تحلـــم وتصبو لأن تكون ملكة.وقاضية ؟ وما الضير فى أن تكون كل هؤلاء ، وأن تتخلى عن أضغاث أحلامها ...

وبحسبنا أنهن لو قرأن قصة : " يعفـــور " هدهـــد سيدنا سليمان عليه السلام لأدركن أنه لما خشى أن يفقده سليمان فى وقت الصلاة لأنه كان دليـــل ســـليمان عليـــه السلام فى الماء ، هدأ " عفير " الهدهد اليمانى من روعه وقال له : " إن صاحبك ليفرحه أن تأتيه بخبر هذه الملكـــة (بلقيس بنت البشرخ) ، فلما شاهد يعفـــور أنهـــــم يعبدون غيرالله ، وأن امرأة تملكـــهم أصابتـــه الدهشـــة والحزن لأنه لم يألف ولم ير هذا من قبل ، فلمـــا ســـأله سليمان عليه السلام : " ماالذى أبطـــأك عنـــى" ؟ قـــال : علمت مالم تعلم ﴿وَجِئْتُكَ من سَبإٍ بنبإٍ يقينٍ إنّى وَجَـــدتُ إمرأة تَملكُهُم وأوتيتْ من كُل شىءٍ ﴾
سورة النمل ، الآية ٢٢،٢٣

بجانب ما تقدم لم نسمع ولم نقرأ أن ثمة امرأة تولت منصب القضاء فى الإسلام على الرغم من أن السيرة العطرة مليئة بنساء المسلمين الفضليات ، ولكن ما قرأناه بالفعل هو دورهن البارز فى خدمة الإسلام وأبناء المسلمين ...

ولا مراء أن المرأة لو تركت الحديث فى هذه الأمور ووجهت علمها وعقلها لخدمة الأبناء ، وذلك من خلال بيتها وعملها لتخرج بإذن الله تعالى فى مدارسها رجال ونساء لهم شأو عظيم ، آنذاك تكون قد نهضت بالأسرة ، وقدمت للوطن أعز وأغلى الرجال والنساء فى كل المجالات ...

وإنه ليسعدنى حقا أن أنوه وألمح إلى عدة رؤى أراها فى بعض الأحايين أحد الأسباب المباشرة وراء فقدان بعض الرجال لعقولهم :

أولها : أنه فى اعتقادى أن المرض العقلى به جزء وراثى ولكنه لا يظهر إلا مع ضغوط المجتمع المحيط بهذا الإنسان أو فى سن معين ، فالأبناء فى الغالب لا يرثون المال عن الآباء فحسب كما هو معلوم للجميع ، بل نراهم فى أحيان كثيرة يرثون الانطواء والعزلة والعزوف عن الحديث اللهم إلا

للضرورة القصوى ، كما يرثون عن الآباء الهدوء والأدب الجمان ، ولعلنى أعتقد أن هذا الإرث الذى لا دخل للأبناء فيه يؤدى بهم آجلا أم عاجلا إلى اضطراب عقولهم ...

ثانيهـــا :

إن كان الحديث النبوى الشريف يحثنا علـــى أن : " (كل ما أسكر كثيره فقليله حرام ، ولو لم يســكر) " ، فلا يخالجنا الشـــك قيـد أنملـــة أن الســموم البيضـــاء والمخدرات بأنواعها المختلفة تؤثر بالسلب على عقـــول المتعاطين لها ، وهذا من منطلق أنها تصيبهم فى مقتـــل لأنها تدمر الجهاز العصبى للمتعاطى ... فإن كانت هـذه السموم تجعل المتعاطى لها يفقد عقله عدة سويعات مـــن ليل أو نهار كما يفقد شعوره بما يدور حوله ، فتراه غـير متزن يهذى بكلمات غير مفهومة ويأتى بحركـــات غـير مألوفة لا تصدر إلا عن مختل عقليا ، فلا غضاضة هـــهنا ولا تحرج فى أن نقول : " من يفقد عقله عدة ســـويعات من ليل أو نهار نتيجة تعاطيه للسموم البيضـــاء ، فإنـــه لا شك مع استمراره فى التعاطى لهذه الســموم فلســوف يفقد عقله اليوم كله ، ومن كان يأتى بحركات المجنـــون بالأمس واليوم فهو مجنـــون الغد...وهـــذا هوالواقـــع الأليم الذى لايتلمسه أحدنا دون الآخر،بل نتلمسه جميعـــا كأبناء لهذا الوطن ، سواء كنا نسمعه أونراه بالقرب منـــا أو بعيدا عنا ...

ثالثهـــا :

الفشل في الحب والحياة الزوجية والدراسة ومـــا شابه ذلك من الأمور الحياتية التـــى يعيشـــها الإنسـان بحلوها ومرها ، لاشك أن كل هذا يؤدى بصاحبـــه إلــى الاكتئاب الذى يؤدى بدوره إلى الانتحـــار وفقـد العقـل وخاصة عند أصحاب النفوس الضعيفة ، أما كل هذا عنـد أصحاب النفوس الكبيرة فهو ليس نهاية العالم ، بل هـــو نقطة الانطلاق إلى عالم النجاح ••• ولعلنى فـــى هـذا المقام أذكر حكمة لا يتصف بـــها إلا أصحـاب النفـوس الكبيرة تقول :

" إذا رأيت إنسانا يضحك فى مقام الجد فلا تســارع باتهامه بالطيش والهذر والســخف ، فقـد يكـون الضحك تعبيرا عـن جـد صـارم أو عـلاج لآلـم وحزن دفين ، فـــإن أصحـاب النفـوس الكبـيرة يواجهون الأمـور المعضلة بالابتسام ، وإذا نزلـت بأحدهم نازلة كان من العار عليه أن يبكـــى ومــن القوة أن يضحك "

* * *

وقبل أن تبدأ جولتنا داخل المستشفيات والمصحات النفسية لنتعرف على رأى السادة الأطباء وراء هذه الظاهرة التى صارت تؤرق بعضنا أو كلنا وهى ظاهرة غروب عقول الرجال أحب أن أبرىء المرأة من التهمة المنسوبة إليها ، وأقول بلسان صدوق وبقلم لايعرف المواربة أو المجاملة أن المرأة ليست وراء ماحل بعقول الرجال الشعث الغبر ولا من يسيرون فى ركابهم ، فكيف بالمرأة التى تسير على قدم وساق فى هذه الحياة بجوار الرجل أن تلقى به فى غيابات الجب ؟ أو عندما نشاهد أو سمع مجموعة من النسوة ارتكبن وهن أيقاظ أو فى غفلة عدة جرائم ، أويعطينا هذا الحق فى أن نتهم مجتمع النساء بأكمله بالقسوة والاجرام ؟ ... بالطبع لا ...

وقد يسألنى أحد الرجال مستفسرا فيقول : " وما حجتك فى ذلك ؟ آنذاك أقول معقبا وسائلا : " أتبذر المرأة المرض النفسى فى عقول الرجال كما يبذر الفلاح الحب فى الأرض ؟ فلما يقول : اللهم لا ، أبادره سائلا مرة أخرى فأقول له : " هلا تقتصر الأمراض النفسية على الرجال وحدهم دون النساء ؟ "

ورحت أنظر إلى السائل لأرى وقع سؤالى فى نفسه فوجدته مرتبكا والدهشة تعتلى وجهه ، وهو يحاول جاهدا أن يعالج الكلمات قبل أن تخرج من فيه ، وبالرغم

أنها خرجت متقطعة إلا أنه قال فى خجل : " بلا ، فهى كما تصيب الرجال تصيب النساء ، ثم توقف لحظات وكأنه يلتقط أنفاسه ثم قال : "بل وتصيب الشباب والفتيات وهم مازالوا فى ميعة الشباب ، وكما تصيب الشباب والفتيات فهى أيضا تصيب الأطفال " . . .

رأيتنى وأنا أتحدث مع السائل أربت على كتفه وأقول له والبشاشة تعلو وجهى والوجوم يعتلى وجهه : " إذا لادخل للمرأة بما يحدث لعقول الرجال ، ولادخل للرجال بما يحدث لعقول النساء ، والأغرب من ذلك أن المرأة قد تستشعر ببوادر المرض النفسى عند زوجها وهو مازال فى المهد ، آنذاك تقودها طبيعتها الفياضة بالحب والحنان فى احتواء الرجل فتأخذ تخفف عنه وتزيل المشاكل وضغوط الحياة من طريقه فتراها لاتسمعه إلا كلمات الغزل والحنان والحب الشفوق ، فلما تمر الأيام ويتعاقب الليل والنهار ، ينبلج نور الصبح عن زوج سوى لايعانى من أدنى مرض ولا يحتاج إلى زيارة طبيب ، وقد يقف الرجل من زوجته نفس الموقف فتبرأ بإذن الله من المرض قبل أن يتمكن منها ويفترسها . . .

بادرنى السائل قائلا وقد تحول وجهه من الوجــوم إلى البشاشة : إذا فالاستعداد والتكيف هما اللــذان وراء الاصابة بالمرض النفسى ، ثم توقف لحظة ونظــر إلــى وقال : أليس هذا هو ماتقصد ؟

فلما وجدت السائل يقترب من الحقيقة راق لى هذا فوجدتنى أقول له مهلا : نعم هو كما قلت وزد عليــهما الضغوط وهى أحد العوامل المسببة للمرض ...

وصور لى عقلى أن الحديث بينى وبين السائل قـد أشرف على النهاية ، إلا أنى عندما نظرت إليه فرأيت أنه مازال فى جعبته الكثير من الأسئلة ، ولاأخفى عليكم أننــى ما أحببت أن أفوت عليه الفرصة ، حينذاك أشــرت إليــه بيدى وقلت له باسما : هات ماعندك ، إلــى بمــا يــدور بخلدك لعل حديثى معك الآن يكون عــبرة للخلائــق مــن يدرى ! ...

وللحق كانت كلماتى هذه بمثابة كوب مــاء بـارد ناولته بحب لسائلى الذى رأيته وكأنـــه الظمــآن الـذى يبحث عن الماء فى الصخرة الصمــاء ، فســرعان مـا وجدته يقترب منى ويعتدل فى جلسته ويبـــادرنى ســائلا فى لهفة بصــوت حزيــن : أرى بعــــض الأبـــاء والأمــهات ممــن تجــردت قلوبــهم مــــن الرحمـــة

والشفقة يضربون أطفالهم بوحشية ضربا مؤلما تدمى لــه العيون والقلوب ، فلما يرق قلبك لحال الطفل وتقترب مــن الرجل وتقول له : ارفع يدك يارجل عن الطفل وكف عــن ضربه ، ينظر إليــــك بطـــــرف عيــــنه ويقـــــول لك فى غضب وسخرية : إليك عنى وعن طفلى فإنى أؤدبــــه حتى لايفلت زمامه فيما بعد ، فهل يؤثر هذا العقاب المؤلم على الأطفال فيما بعد فيمرضون بأحد الأمراض النفسية ؟

أصابتنى الرعشة من كلمات سائلى حتى ظننت أنى أحد هؤلاء الأطفال وأبى ماثل أمامى يضربنـــى بــالعصى وأنا أتألم ولكننى لا أستطيع أن أدفع عنى ظلم العصــــــا ، أو بالأحرى ظلم أبى ، إلا أننى تنبهت للســـؤال معقبــا بعين دامعــــــة : " تبا لهؤلاء الآباء والأمهات الذيـــن يفعلون ذلك ، أويعلمون أن الرحمة مطلوبة من الإنســان على الحيوان ؟ فكيف والذين نضربـــهم بـــهذه القســوة والوحشية هم فلذات أكبادنا الذين يمشون علـــى الأرض ؟ نعم التقويم والأدب مطلوبان ، ولكن أومن شـــك فـــى أن عقول الأطفال مازالت لاتعى بعد أن الضرب الواقع علـــى أجسادهم النحيلة هو من أجل التقويم والأدب ؟ تمــــــاما كما نعلم نحن أن هناك عشرات من الطـــرق بمـــا فيـــها

الضرب غير المبرح ، فيما عدا القسوة والوحشية اللـذان يتمخضان بعد سنوات عن نزيل فـي إحـدى المصحـات النفسية ٠٠٠

نظرت إلى سائلى فوجدت الدهشة ترتسـم علـى وجهه، أو بصورة أكثر وضوحا مازالت الصورة لم تتضح أمامه بعد فقلت له شارحا : لو نظرت وتتبعت أحد هـؤلاء الأطفال لوجدت أنه مهزوز عدوانى خائف من كل شـىء ، قلق كذاب يختلق المبررات مخافة أن يقع تحـت وطـأة العصى والمقارع ، فلما يصل إلى طور الشباب يودع بيـد الضارب أو الضاربة (الأب أو الأم) بـإحدى المصحـات النفسية ، وللأسف فإن هذا النوع يعد من أخطر المرضـى النفسيين لأنه بشهادة الجميع يكون مريضا عدوانيـا ٠٠ لذا أناشد الآباء والأمهات أن يلتزموا الحيطة والحذر بقدر المستطاع ، وأنهاهم عن استخدام القسوة مـع الأبنـاء، فإنها أى القسوة إن لم تصل بالطفل إلى المرض النفسى ، فإنها قد تصل به إلىالهروب من المنزل بلا رجعة مخافـة القسوة والعقاب ، وللأسف هـذا هـو الواقـع المرئـى والملموس الذى إن لم نره رأى العيان ، فلا شك أننا نراه من خلال وسائل الإعلام المرئية وغير المرئية ٠٠٠

لما رأى سائلى أننا قد فرغنا من الحديث عن هـذا السؤال أراد أن يلاحقنى بالسؤال التالى ، لعله تقافز إلـى ذهنه أنى ربما انصرف عنه ، ومن يدرى لعله وجـد أن السؤال الذى لم يطرحه على مسـامعى حتـى الآن ملـح ويحتاج إلى إجابـة شافيـة ، فسـرعان مابـادرنى بالسؤال فقال : هل الفتور والضعف الجنسى الذى يصـاب به الرجل حيال زوجته له ثمة علاقة بالأمراض النفسـية التى قد تصيب الرجال ؟

ورأيتنى أنظـر إلـى سـائلى متـأملا وسـرعان ماوجدتنى أتحدث مع نفسى قائلا لها : أوعاد سائلى يحمل المرأة مسئولية ماحل بعقول الرجال ؟ أم أنه مجرد سـؤال عابر خطر بذهنه وأراد الآن أن يلقيه علـى مسـامعى ، ولكن سرعان ماوجدت له المبرر والعذر الذى يشفع لـه عند نفسى حين تذكرت من فورى أن ما تبادر إلى ذهنـه هو هو الذى يعيش فى تلافيف الكثير من الرجالات ولكـن أغلبهم يفضل أن تكون مصيبته خرساء ليس لها صـوت بحكم الدين والتربية ونقاء السريرة ...

لما وجدت سائلى ينتظر إجابتى فى لهفة قلت له : كلنا نعلم أن الجنس ضرورى لبقاء النوع ، كمـا وأنـه يضفى السعادة والبهجة فى نفس كل من الرجل والمرأة ،

فإذا فقده أحدهما أو كلاهما ثار وغضب وتـــألم وحـــزن من الطرف الآخر وخاصـــة إذا كـــان كلاهمـــا لايعـــرف طريق الغواية والشيطان ، ويحقر الحرام ، ويقدس الحلال لأنه بأمر الله تعالى وبشـــرعه وبســـنة رســـوله صلـــى الله عليه وسلم ٠

أيها السائل ، الفتور والضعف الجنسى عند الرجال يأخذ عدة أشكال نوجزها فى ثلاثة :

<u>أولا</u> : هذا الرجل الأعزب الذى يعلم تماما أنـــه لايصلـــح البتة لأن يكون زوجا لامرأة لأنه لايستطيع أن يعاشـــرها معاشرة الأزواج ، فهو فى الغالب يتجاهل الزواج حتـــى لا يفتضح أمره ، أو يكون سببا فى ظلم امرأة بريئة ، ولكـــن قليلا مايزين له الشيطان المارد اللئيم أنه إذا اقترن بامرأة من بين النساء ، وشاهد منها مايسيل له لعابه ويحـــرك غرائزه فإنه آنذاك يصير رجلا سويا كبقية الرجـــال ، إلا أنه مـــع مـــرور الأيام يشعر أنه كما هو قبل الـــزواج ، عند ذلك ينسحب من حياة امرأته فى سلام وأمـــان دون أن يتأثر فى الغالب الأعم بصدى التجربة لأنه يعلم بحقيقة أمره تجاه المرأة قبل أن يقترن بها ٠٠٠

<u>ثانيا</u> : ذاك الرجل السوى الذى يقترن بامرأة ويعاشـــرها معاشرة الأزواج بطريقة طبيعة سمحة ، إلا أنه بعد مضى

الشهور من زواجه يشعر بالضعف الجنسى كما يشعر أنه لايقوى على اسعاد زوجته فيهجرها سرا ، إلا أنها تفضح أمره جهرا للغادى والرائح ، ههنا يحدث للرجل ما لايحمد عقباه فيصاب بالتوتر والاكتئاب والقلق النفسى مما حدث له ، فيكون الرجل هنا ولاشك عرضة للإصابة بالمرض النفسى...

وللحقيقة أن بعض النساء الفضليات من اللاتى خرجن من بيوتات عفيفة طاهرة لايبحن بهذا السر لأحد أيا كان ، بل يصبرن صبرا جميلا حتى يفعل الله أمرا كان مفعولا، لأن كلهن يعلمن أنها الكبوة أو الغمامة التى سرعان ماتنقشع وتزول ...

<u>ثالثا</u> : شيخ تزوج منذ عشرات السنين وأنجب بنين وبنات إلا أنه شعر بنضب المعين بعد طول عطاء نظرا لانصرافه فى الجنس فى فترتى الشباب والكهولة ، فمثل هذا الشيخ لايشعر بالكآبة والاحباط لأنه وصل ولاشك لدرجة الإشباع الجنسى هو وزوجته إن كانت على قيد الحياة أو فارقت دنياه إلى دنيا الخالدين...

وهناك ثمة نقطة رأيت أنه من الضرورة بمكان أن أشير إليها وأترك لك عزيزى القارىء أن تدرك أبعادهـا وخطورتها وتبعاتها وهـى : أن بعض الرجال ممن يبغضون الحرام بغضهم للشيطان ، ويحبون الحلال حبهم للماء والهواء يفاجأون أن زوجاتهم قد أصبن بالبرود الجنسى بعد عدة سنوات نتيجة للختان الجائر فيتمنعن وهن غير راغبات بالفعل ، آنذاك يضرب هؤلاء الرجال أخماسا فى أسداس فتراهم ينظرون تارة إلى الأبناء فتجف دموعهم ، وأخرى ينظرون فيما حولهم فيشاهدون النساء يتبخترن وكأنهن الغزلان يمشين الهوينى فيسيل وقتئذ لعابهم وتدمع عيونهم وترتجف قلوبهم إلا أنهم لا يقترفون الذنب خشية أن يخسروا دينهم .. فمنهم من يصبر على مضض ، ومنهم من لايستطيع فتراه يسابق الصبر والصبر يسابقه إلا أنه فى النهاية يخفق فيمرض نفسيا بعد أن يصيبه الإحباط والكبت...

وماهى إلا اللحظات أو تكاد ورأيت ضميرى يبكى بداخلى ، وبصوت تتموج فى مقاطعه معانى الحزن قال لى : بربك ورب كل شىء لاتغادر مكانك هذا قبل أن تسدى النصيحة إلى الآباء والأمهات ، والأزواج والزوجات فلعل صراخى وحزنى هذان يصلان إلى مسامعهم فيتوقفون ويتدبرون ما آل إليه حالهم مع أنفسهم حينئذ تخيم السعادة وتنسج نسيجها حول

الجدران فيشعر عند ذلك بدفئها ساكن الديار ...

فلما رآني سائلي أحدث ضميري ويحدثني أطلق لقدميه العنان دون سابق إنذار أو حتى استئذان ، آنذاك نظر إلى ضميري وأنا أنظر للسائل في عجب وأسف وقال لي : لاتحزن ، دعك منه فإنه توجس خيفة لما رآك تتحدث معي ظنا منه أنه قد أصابك الشطط والجنون ، ولو أنه يعلم أنها صحوة الضمير ماتركك البتة ولابارح المكان إلى غيره ...

أردف ضميري يسمعني في شغف وأنا أوجه النصيحة إلى الآباء والأمهات فأقول لهم :

رحماكم بالأبناء ضموهم إلى صدوركم وأشعروهم بحنانكم ، وعنفوهم مرة بالشدة وأخرى باللين ، وإياكم والقسوة فإنها وإن لم تؤد بهم إلى المرض النفسي ، فإنها وربي وربكم لتؤدي بهم إلى البلطجة ، آنذاك ترون الأبناء يفضلون الشارع عن العيش في كنفكم ، ولا أحسب أنكم سوف تقسون عليهم إذا قرأتم قول الشاعر :

وإنما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرض
لو مرت الريح على بعضهم
لامتنعت عيني على الغمض

لما رأيت ضميرى متهللا من الفرحـــــة تحمســت وأخذت أنادى على الأزواج والزوجات أن هلموا لأســدى إليكم النصيحة ، فلما اجتمعوا قرت عينى بجمعهم وقلــت لهم : أيها الزوج والزوجة فليكن كل منكما للآخر ســـره وأمانه ومعقله ، فإن فقد أحدكما الإبصار بعين فليجعل من الأخرى جهاز إنذار يرى بها مايدور حوله قبل أن يفقــد الإبصار فيصير أعمى يتحسس جدران الحياة بـــلا ســند ولامعين إلا غباؤه الذى تمخضت عنه الأيــام ، ولتتذكــر دائما أيها الرجل ماقاله الرسول صلى الله عليـــه وســلم لعبده أنجشه : (رفقا بالقوارير ياأنجشه) أى النســاء ، ولا تنسين أنت أختى المرأة ماقاله الرسول الكريـــم (لــو كنت آمر أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المــــرأة أن تســجد لزوجها) وإياكما أن تصرفا فى حصاد المتعة فى شبابكما فتندمان فى كهولتكما ، وإن أردتما النجـــاة فعليكمـــا أن تتذكرا قول الله تعالى :

﴿ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ ﴾
سورة البقرة ، الآية ١٨٧

هدأ ضمـــيرى واســـتراح وبعــد قليــل ســمعت صــوت غطيطه فاطمأن قلبى ورحت عند ذلـــك أســرع الخطـى

إلى إحدى المستشفيات النفسية العريقة ، وبين جدرانـــها دار الحوار بينى وبين الرحماء من الأطبـــاء الذيــن مـــا إن علموا بوجهتى ومأربى إلا وتهللت وجوهـــهم فرحـــة وقالوا وأنا أصغى إليهم فى اهتمام بالغ وكـــأنى التلميـــذ يجلس أمام معلميه ويخشى أن يستوقفهم فتضيـــع منـــه معالم الطريق ٠٠٠٠

* * * *

المعتقدات والمزاعم والنظرة التشاؤمية :

يعد المرض النفسى من وجهـــة النظـر العامــة والخاصة من أكثر مشاكل الصحة النفسية خطورة علـــى المجتمع ويرجع ذلك إلى الافتقار الثقافى لأفراد المجتمـــع عن طبيعة المرض وأسبابه ومؤشراته وكيفية التعامل مع هؤلاء المرضى داخل الأسرة وخارجها ٠٠٠

لذا رأينا أنه من الضرورة بمكان أن نلقى الضـــوء على مزاعم ومعتقدات البعض حول مستشفيات الأمــراض النفسية، وما يثار من جدل حول أســـباب المــرض عنـــد العامة٠٠٠

ذهب البعض فى مزاعمهم ومعتقداتـــــهم إلـــى أن مستشفيات الأمراض النفسية أنشـــئت خصيصـــا لتكـــون الدرع الواقى لأفراد المجتمع والسجن لهؤلاء المرضـــى ، كما ذهبوا إلى أن طرق العلاج المستخدمة حيال هـــؤلاء المرضى طرق سلبية وعقيمة لاتبرأ من داء ، وأن قليلـــها ككثيرها لايسمن ولايغنى من جوع٠٠ ٠

وهناك إجماع عند البعض أن المريض النفسى ماهو إلا إنسان غريب فى تصرفاته وأفعاله ، وأنه أكثر الأفـــراد

خطورة على المجتمع ، كما وأنه لايمكنه التمييز بين الصواب والخطأ ، كما وأن البعض يعتقدون أن الحسد والعفاريت والأسياد والأعمال وراء المرض النفسى الذى يذهب باتزان العقول والنفوس ، حتى أن البعض ذهب إلى أن المرضى النفسيين فيهم شىء لله (هؤلاء المجذوبين الذين يعيشون فى حب الله)، كما وأن البعض يرى أن مستوى التعليم وراء المرض النفسى ، وحجتهم هى أن الفشل فى عدم مواصلة التعليم وراء المرض النفسى ..

ولو أننا تنحينا عن هذه النظرة التشاؤمية ونظرنا إلى المرضى النفسيين على أنهم أشخاص عاديون لايمثلون أدنى خطورة على المجتمع ، وأن الشفاء من المرض آت بإذن الله ، خاصة لو توفر لهم المناخ المناسب فى إقامة نمط جيد من التفاعل مع الآخرين .. على أن تشمل هذه النظرة العطف والشفقة نحو المريض النفسى ، وهذا من منطلق أن المرض النفسى ماهو إلا مرض كأى مرض لابد وأن يلقى الاهتمام والرعاية من جانب الآخرين داخل الأسرة وخارجها ..

وحتى تكون الصورة أكثر وضوحاً تعالوا بنا نستعرض سوياً هذا الشكل التوضيحى حتى نتمكن

من معرفـــة ماهــــى عوامــــــل الإســـتعداد (Predisposition Factors) ، ومــا هــى العوامـــل المسببة للمرض (Precipitation Factors) :

عوامل الاستعداد	العوامل المسببة للمرض
* عوامل وراثية	الضغوط
* عوامل اجتماعية	– اجتماعية
* عوامل نفسية	– مادية
* عوامل بيولوجية	– مرضية

وبنظرة متعمقة إلى عوامـــل الاســـتعداد ، وتلـــك المسببة للمرض النفسى نجد أن العوامل التى تحكم نمـــو السلوك السوى هى نفس العوامل التى تحكم نمو الســلوك غير السوى ، وأن الفارق القاطع بين السلوكين هى تلـــك الصورة التى تكون عليها هذه العوامل ٠٠ فـــإذا كـــانت الصورة على نحو موات ساعدت ولاشك على أن يكـــون سلوك الفرد سويا محققا للتكيف الصحيح والملائـــم فـــى البيئة ، والعكس إذا كانت على نحو غير مــــوات فإنـــها تساعد فى نشأة السلوك غير السوى ، آنـــذاك نقـــول أن الإنسان قد فشل فشلا ذريعا فى تحقيق التكيـــف الســـليم والملائم للفرد فهو مريض ٠٠

ولعلنى أجزم ههنا أن ثمة عدة عناصر أساسية إذا ماتوافرت بالإيجاب أمام الطفل منذ نعومة أظفاره حتى يصير شابا يافعا أضحى قويا صلدا يستطيع فى سهولة ويسر أن يواجه أعاصير الحياة ويقهرها كما يستطيع أن يتصدى للصعاب دون أدنى خوف ، أما إذا توافرت بالسلب فإنها ولاشك تكون بمثابة الطائرة النفاثة أو الباخرة التى تحمل على ظهرها هذا المسكين حتى تودعه على أريكة بين أربعة جدران فى إحدى المستشفيات النفسية ، وهذه العناصر نوجزها فى الآتى :

- عمليات التعليم داخل الأسرة والمدرسة .
- الأسرة التى ينشأ فيها الطفل .
- نوعية العلاقة التى تنشأ بين الطفل وبين أبويه وبين أفراد أسرته .
- نوعية العلاقة التى تنشأ بين الطفل وبين زملائه فى المدرسة .
- الوسط الثقافى والاجتماعى العام المحيط بالطفل .
- العوامل الوراثية والبيئية .

وقد يسأل سائل فيقول : لماذا نأتى بالأسرة والمدرسة فى المقام الأول ، ثم نأتى بالمجتمع ، أليس الأجدر بنا أن نأتى بالمجتمع ثم بالأسرة ثم المدرسة ، لماذا نلقى اللوم على الأسرة والمدرسة دائما فى مقدمة حديثنا ؟ . . .

والإجابة العلمية والعملية فى هذا الشأن تقـــول :
أن نظرية التحليل النفسى تعتبر السنوات الخمس الأولـــى من عمر الطفل من أهم سنوات حياته على الإطلاق ، أمـــا " فرويد" فيرى أن التربية فى الطفولة الأولى بدءا مـــن الرضاعة ، وهى الفترة التى تترك أعمق الآثار الإيجابيـــة أو السلبية فى نفس الفرد ، بعدها يفصح الكائن الصغـــير (الطفل)عن الكامن الخبىء فى نفسه ، كما ينتقـــل بنـــا فرويد فى موضع آخر فيقول : أن أسباب المرض النفســى ترجع إلى استعداد ناتج عن اللبيدو (الطاقة النفسية التى هى أساس الغرائز المختصة بالبناء ، كما وأنـــه يشـــمل الغريزة الجنسية التى تســـاعد علـــى اســـتمرار الحيـــاة وبناءها) وهذا الاستعداد يتوقف علـــى مقـــدار الخـــبرات الطفلية ، أى التى يكتسبها الفرد منذ نعومة أظفاره...

أما " فروم " فيذهب هو الآخر إلى أن الأســـرة ومن ورائها المجتمع مسئولان عن النشأة السليمة للفرد، وأن الصحة النفسية للفرد تكون رهنا بتوفـــير المعاملـــة المتوازنة المشبعة بـــالحب والحنـــان والاحـــترام داخـــل الأسرة.. أما إذا تعرض الطفل لأساليب خاطئة أو مغالية فى التربية ، فهو آنذاك يشعر بالوحدة والعجز والاغـتراب الذين يتولد عنهم فيما بعد المرض النفسى ...

وإنى لأشعر أن بداخلى ثمـــة إضافـــة أحـــب ان أضيفها إلى رأى كل من فرويد ، وفروم لتكون الرؤيـــة أكثر وضوحا وهى :-

أننا نحن الأباء والأمهات نلحق بأطفالنا بنوعا من التدليل، أو التقليد ، أو الحب المفرط بالمدرسة وهم مازالوا بيـــن الثالثة والرابعة والخامسة ، وهى كما نرى تعـــد ثـــلاث سنوات من السنوات الخمس التى أشار إليها فرويد فـــى نظريته وقـــال أنها من أهم سنوات حيـــاة الطفـــل علـــى الإطلاق ، وهذا ما يجعلنا نؤكد على أن المدرسة تشـــترك أو تسير جنبا إلى جنب بجوار الأسرة فى تعليم الطفل منذ خطواته الأولى فى الحياة ، لهذا نقول أن الطفـــل لوفقـــد ينبوع الأسرة المتدفق وينبوع المدرسة المتواصل فإنـــــه ولاشك يكون قد فقد بصره وهو البصير ..

إذا لاغضاضة فـــى أن نشـــبه هـــهنا الأســـرة ، والمدرسة والمجتمع مجتمعين بـــسفينة الفضاء ، ورجـــل الفضاء ، وكوكب القمر ونقول : هل بمقدور رجل الفضاء بمفرده أن يحلق فى طبقات الجو العليا حتى يصل لكوكـــب القمر ؟ هل بمقدور سفينة الفضاء أن تتحرك خطـــوة دون التحكم فيـــها مـــن كوكـــب الأرض ؟ والســـؤال : كيـــف توصل الإنسان إلى العلم الذى استطاع عـــن طريقـــه أن يصنع بـــإذن الله ســـفينة الفضـــاء، وملابـــس الفضـــاء

ليصل فى النهاية بالعلم النافع فيلقيه شفاهة أو مخطوطا على أفراد مجتمعه ؟ والإجابة عندما ألقت الأسرة بالنواة الأولى أو البذرة ، فتعهدتها المدرسة بالرعاية والسقى حتى أينعت وصارت تعود بالخير العميم على المجتمع ، وهذا ما يجعلنا نلح فى القول على أن الأسرة تأتى فى المقدمة تليها المدرسة ثم المجتمع ....

وهناك نظريات تقول : أن المريض النفسى هو الأسرة وليس الفرد كما يبدو لنا ، والحجة هنا أن بعض الأسر تمثل الأرض الخصبة لنشأة المرض ، كيف ؟ بنوع من العلاقات السائدة فيها وظروفها الاقتصادية والاجتماعية ، وكذا طبيعة تركيبها ، مع الأخذ فى الاعتبار أن المريض فى هذه الأسرة يكون أضعف أفرادها وأكثرهم عرضة واستعدادا للمرض ، وهو أيضا الفرد الذى عبرت الأسرة عن طريقه عن اضطرابها وسلوكها المعيب حيال أفرادها ...

أما نظرية ''بالفلوف'' فتقول فى مدلولها العلمى : '' أن هناك كائنات حية يتصف جهازها العصبى بقدرة الخلايا على التحمل ، كما يتصف جهازها العصبى بالتعادل والمرونة بين عمليتى الكف والإثارة ، وهناك فى المقابل كائنات ذات جهاز عصبى ضعيف ،

وقد تكون إحدى عمليتى الكف والإثارة أحدهما أقوى من الأخرى وهذه الفئة التى تكون أكثر عرضة للإصابة بالعصاب والذهان ...

ويرى " بوين " أنه فى الأسرة المنجبة " للفصام " تكون الأم داخل الأسرة هى الطرف المسيطر ، بينما يكون الأب فى موقف الخانع المسكين غير القادر البتة على اتخاذ القرارات ، ثمة ملاحظة أراد بوين أن يلفت إليها أنظارنا وهى التباعد العاطفى بين الأبوين والذى أطلق عليه الطلاق العاطفى (Emotional Devorce).

ولو حديثا دار بينك وبين فريقين مختلفين من العامة عن أساليب التربية الخاطئة التى تعد هى الدافع القوى وراء اهتزاز العقول فيمابعد ، لتحدث معك الفريق الأول عن " أسلوب القسوة " فقال أفراده : " عند إتباع الوالدان مع طفليهما هذا الأسلوب يدرك الطفل تماما أن والديه يلجآن دائما إلى عقابه تارة بالضرب وأخرى بالتهديد والوعيد إذا ما أخطأ ، أو لم يطع أوامرهما، وأن أسلوب القسوة هذا يتضمن عدم ميل الأباء إلى مناقشة الطفل فى ميوله ، وطموحاته وأرائه ، ورغباته ، بل أن الأب والأم يسرعان بالعقاب تجاه أى بادرة تصدر من ابنهما ويرى الوالدان أنها تعد

خروجا عن المألوف من السلوك المعتدل ، أو لأن تصرفات الطفل تسبب لهما الإزعاج وهما مجهدان متعبان من أثر العمل والأعباء الملقاه على كاهلهما ، وما أكثر الحجج الواهية التى يطالعنا بها الأباء هذه الأيام ....

أما الفريق الثانى فسوف يتطرق فى حديثه إلى " أسلوب التفرقة " وهى التفرقة فى المعاملة بين الإخوة ، وبمعنى أكثر وضوحا انحياز الأب والأم لأحد الأبناء على حساب الآخرين ، وقد تكون التفرقة فى المعاملة لتفوق أحد الأبناء فى الدراسة وتعثر الآخر ، أو لوجاهة أحد الأبناء ودمامة الآخر ، أو التفرقة فى المعاملة بين الابن الأكبر وشقيقه الأصغر ، آنذاك يجد الأكبر كل الرعاية من الأبوين على حساب شقيقه الأصغر أو العكس ...

ونحن ههنا نحترم أصحاب الفريقين لأنهما قد أصابا الهدف ولكننا نجد أنه من الضرورة أن نشير إلى الأسلوب الصحيح أو القويم فى التربية فى إيجاز ، ولعلنا نغض الطرف عن أسلوبى القسوة والتفرقة ، وتتسع حدقات عيوننا على الأسلوب الصحيح الذى يجب علينا إتباعه رحمة بنور عيوننا الذين يمشون على الأرض ولانأمل فى الدنيا إلا وجودهم أصحاء لايعرف المرض طريقا إليهم.

الأسلوب القويم :

وهو الأسلوب الذى يدرك الطفل فيه من خلال معاملةوالديه له أنهما يعاملانه معاملة طيبة ، فهاهما يعطيانه الحرية بقدر معلوم ، ويلبيان رغباته بقدر المستطاع ، ويسديان النصيحة إليه بين الفينة والفينة ، يعنفانه مرة بالشدة وأخرى باللين ، ولا يحرمانه من شىء ، وقتئذ يشعر الطفل بحب والديه الثابت والدائم له ، كما يشعر بالدفء الأسرى والارتياح والهناء العائلى ، آنذاك يهتف الطفل من أعماقه كما يهتف كل المحيطين به قائلين أن الأسرة ههنا وفرت للطفل الطفولة السعيدة التى تتمخض يوما عن رجل يستطيع أن يواجه الحياة بمفرده دون خوف أو فزع ...

الخلاصة والتعقيب :

لاشك أن عوامل الاستعداد ، والعوامل المسببة للمرض إذا ما غلفت ببيئة غير صالحة للفرد الذى هو أحد أفراد الأسرة ، وإذا ما افتقرت الأسرة التى يعيش الفرد بين جناحيها إلى تلك المودة والرحمة التى تربط بين الأب والأم ، فإنها لن تتمخض فى الغد إلا عن طفل أو شاب جريح مختل العقل يتخبط فى سياج الحياة .. وبمعنى آخر مفاده أن الأمراض النفسية تشتمل على ثالوث يتكون من :

* أم فقيرة التكيف(Inaduquate) تميل إلى السيطرة على ابنها مريض الغد بغرض حمايته ، هكذا يصور لها عقلها ، هذا بجانب عدم الوجود الحقيقى لزوجها فى حياتها الزوجية ٠
* طفل مريض ضعيف الحيلة يهب نفسه لأمه مما يعزز مع الأيام ضعفه
* والد هامشى أو خيال مآته لايرى فيه الابن الصغير ضالته المنشودة فيتحول عنه ويتجه للإرتباط بأمه٠

وليكن معلوما للجميع أن مثل هذا الطفل عندما يقترب من سن المراهقة فإنه يتحول من الطفل العاجزإلى الشاب الراشد سيىء التكيف ، وإذا أراد أن يتنحى أو يتحرر عن أمه فعليه ساعتئذ أن يواجه العالم الخارجى بدون (أنا) قوى ولكنه سرعان مايصيبه الفشل فينتهى به الأمر إلى المرض وكذا العجز ، وهذا الواقع المؤلم هو مايجعلنا نشير إلى أن شبكة العلاقات الإنسانية والاجتماعيةلابد وأن يتمخض دورها على هذه الأرضية ، ومن ثم تتفاعل العوامل ذات الطبيعة الوراثية والتكوينية مع العوامل ذات الطبيعة البيئية التربوية ليحدث حينذاك المرض ٠٠٠

* * * * *

الأمراض النفسية والتشخيص الطبى لها :

الأمراض النفسية

إما تكون

عصابى (مسئول) **(Neuroticicm)** **(Psychologist)**	**ذهانى(غير مسئول)**
قلق	**فصام**
اكتئاب تفاعلى	**اضطراب وجدانى**
هستيريا	**عته شيخوخه**
نفسى جسمانى	**عضوية مخية**
سداسى	

أما أمراض الأطفال فهى إما تكــون ذهانيــة ، أو بول لاأرادى ، أو اضطــراب فـــى الأكــل ، أو مخـــاوف مدرسية ٠

وحسبنا أن نعلم قبل أن نستعرض أهم الأمـــراض النفسية أن هناك مواد كيماوية تتنقل بين خلايـــا المـــخ ، وهى ثابتة عند الإنسان غير المريض ، أما عند المريض فتأخذ أشكالا ثلاثة : زيادة ، نقص ، إختلال ٠٠٠ من هذا المنطلق ننوه على الآتى:-

دوبامين ———— زيادة فى النشاط
الفصام ——— سيرونين ——— زيادة
اكتئاب = نقص فى تونين
هوس = زيادة سيرتنين

المرض النفسي '' العصاب '' (*Neurosis*)

العصاب هو عبارة عن اضطراب وظيفـــى غــير مصحوب باختلال جوهوى فى إدراك الفــرد للواقــع ٠٠ والمريض ههنا يحاول من جانبه محاولات غــير ناجحــة للتعامل مع الصراعات التى تكمن بداخلـــه ، وكــذا مــع المشكلات فى العالم الخارجى ٠٠ وفـــى العصــاب تظــل الشخصية متماسكة إلى حد ما ، وذلـــك لأن الاضطــراب يصيب بعض جوانب الشخصية فقط ، وهو فـــى الغــالب الأعم يظهر فى العلاقات الشخصية البينية أكثر مما يظــهر فى الحياة العقلية للمريض ٠

أما عصاب الوسواس (Neurosis Obsessive Compulsive) فهو أكثر أمراض العصاب تـــأثرا بالعــامل الوراثى ، وليكن معلوما أنه يتأثر فـــى نشـــأته الأولـــى بالمعاملة الوالدية ، لذا نراه أكثر شيوعا فى كتب الطـــب النفسى ٠٠

وفى نظرية التحليل النفسى عند " فرويد " نجد أن العصابى عنده هو: أن يجد المرء نفسه لايستطيع أن يواجه مطالب الحياة المحيطة به ، وهو فى حقيقة الأمر لايستطيع البتة أن يواجه مطالبه هو الشخصية بالأساليب العادية والمعقولة .. فهو فى العادة يستبدل بهما اللامعقول واللامقبول ويصعب عليه التحكم فيهما ...

والمريض النفسى يشعر بأشياء غريبة تحدث له مثل : التغير فى الوظائف البدنية كما فى الهستريا ، وقد تكون حالةانفعالية أو مزاجية ليس لها مايبررها كما فى القلق والاكتئاب ، وقد تكون فى صورة أفكار غريبة كما يحدث فى القهور والوسواس .. أما الخاصية المشتركة فى جميع الظواهر العصابية فهى القصور فى جهاز الضبط العادى ، أما فى الذهان فنجد أن جهاز الضبط يفقد تماما قدرته على العمل ...

أعراض العصاب القهرى :

١- التردد والحيرة وعدم القدرة على اتخاذ القرار .
٢- الإرتباك والشك فى نوايا الآخرين ، والميل إلى الدوافع السيئة .
٣- الشعور بالهم والقلق عند حدوث مخالفة .

٤- الاهتمام الزائد بالتنظيم والترتيب والتدقيـــق فـــى صغار الأمور .
٥- المثالية ونشدان الحق والتمســـك بالعدالـــة فـــى صورة متصلبة .
٦- قلة الثقة بالنفس والخوف الشديد من الفشل .
٧- توقع الشر الدائم والتوجس من المستقبل .
٨- الحساسية الشديدة لكل مايمكن أن يمس الكرامة.
٩- الانفعال العنيف لمثيرات قد تبدو بسيطة .
١٠- الرغبة فى تحقيق الكمال .
١١- العناد والإصرار والتشبث بما يعتقـــده المريــض صحيحا.
١٢- التأجيل والتسويف بسبب الرغبـــة فـــى تحقيــق الكمال.

الذهـــان (***Psychosis***) :

يظهر الذهان الذى يعد من وجهة النظر الشخصية الظاهر الخفى حين يصير واقع الشخص مؤلما إلى الحـــد الـــذى يعجز معه عن مواجهة العالم الخارجى حينـــذاك ينـــهار ويمرض ..

وفى الذهان يحدث اضطراب وتفكك فى الشخصية، ويفقد المريض اتصاله بالواقع .

أما عن الاضطراب المصاحب للذهان فيشتمل على تشويه العمليات الإدراكية والجوانب الوجدانية بصورة قد تكون محدودة وقد تكون كبيرة ، وهنا نجد أن المريض ينسحب في حالات عديدة من العالم الواقعي إلى عالم خاص به ٠

وهناك " الذهان الوظيفي " (**Functional Psychosis**) الذى لاينتج عنه ثمة أية إصابات أو أعطاب فى الجهاز العصبى ، ولايصحبه أية اضطرابات فى الجسم أو فى المخ ٠٠٠

ذهان الفصام (***Schizophrenia***) :

يعد من أكثر أنواع الأذهنة انتشارا ليس فى مصر فحسب، بل فى العالم أجمع، وحسبنا أن نعلم أن مرض الفصام يشغل حوالى ثلثى أسرة المستشفيات العقلية فى كل أنحاء العالم تقريبا ٠٠ وهذا ما يدفعنا إلى أن نقرر حقيقة تدمع لها العيون وهى : أن ٢% من الناس على مستوى العالم معرضين للإصابة بالفصام فى مراحل حياتهم المختلفة ، وهو ماتؤكده الإحصاءات من أن حالات الفصام فى العالم تبلغ عشرات الملايين ، وهى كما نرى خطيرة لأنها تشير إلى أن مرض الفصام يعد من أكثر الأمراض العقلية انتشارا فى العالم ٠٠٠

وقد يتوقف القارىء عند هذه الجزئية فتراه يضـع الكتاب جانبا ويروح يحدث نفسه فيقول : رباه لماذا يعتبر ذهان الفصام بهذه الخطورة ، ولماذا يعتـبر مـن أكـثر مشكلات الطب النفسى وعلم النفس ؟ . . .

وتأتى الإجابة الفورية التى تجيب على كل مـايدور بخلد القارىء فتعاجله بالآتى :

- مرض الفصام من أكثر الأمراض النفسية تعرضـا للإهمال من جانب الأطباء.
- أولى المشكلات التى تحيط بمرض الفصام هى :

* هل هو مرض واحد له عدة أعراض كبقية الأمراض ؟
* أم أنه عبارة عن مجموعة من الأمـراض والأعراض يجمع بينها رابطة مشتركة ؟
* أو هو عبارة عن مجموعة من الأمـراض لايجمع بينها رابطة مشتركة ؟

وحول هذا المضمون السابق تعددت الأراء ، فـهذا رأى يقول : أن الفصام ينتهى فى العادة إلى الخبـل . . وذاك رأى يذهب إلى أن الفصام ينتهى إلـى اضطـراب يتميز بتغير فى وظيفة الترابط ، وكذا بتشقق أو انقسـام

يصيب الوظائف الأساسية للشخصية ..
والحقيقة أن الفصام مازال يمثل لغزا محيرا أمام الطب النفسى ، فى حين أن أعراضه واضحة كل الوضوح ...

أعراض مرض الفصام :

وحيث أن مرض الفصام مازال مبهما ، أو بالأحرى صار المرض العضال أمام الطب النفسى ، لذا نجد أن أعراضه متعددة وتشمل كل مجالات الشخصية كالآتى :

(أ) مجال التفكير :

- يشعر المريض بضغط الأفكار وازدحامها فى رأسه ، وعدم مطابقة ألفاظه لأفكاره (وهو أول أعراض المرض) ..
- يشعر المريض بعدم قدرته على التعبير بسبب إنعدام أو ضغط الترابط بين أفكاره ، وهنا يقوم التعبير القريب مقام التعبير الأصلى ، وقد يختلط الواقع عند المريض بالخبل عند وصف الوقائع ..
- يشعر المريض دائما بأن أحدا قد سرق أفكاره ..
- يكون فحوى التفكير عند المريض مخالفا للواقع متناقضا غير منطقى..

(ب) مجال الوجدان :

- ضعف ملحوظ فى قدرة المريـــض علـــى الإستجابة الإنفعالية
- النقص الواضح فى المشاعر العاطفية مـــن المريض تجاه أسرته وأقاربه وأصدقائه ٠
- استمرار الضعف فى الانفعالات حتى يصـــل إلى عدم تناسب الانفعال مع الموقف ٠
- تقلب الانفعالات ، بمعنى الانتقال من حالـــة النشوة والســـرور إلـــى حالـــة الاكتئـــاب والوجوم والاغتمام ٠

(ج) فى مجال الإرادة :

- فقدان المريض للحد الأدنى من إرادتــــه ، وعدم قدرته على اتخاذ أى قرار٠
- السلبية المطلقة، وانتحال الأعذار الواهية٠
- إدعاء المريـــض أن أفكـــاره ومشـــاعره وحديثه ليست خاصة به ، وقد يذهب إلـــى الاعتقاد بأنه شخص آخر ٠
- اعتقاده بأن أشباحا تتحرك أمامه وتتحـدث معه ، وهى فى الحقيقة لاتزيد عن أوهـــام لاتمت للواقع بصلة ٠
- الاضطراب فى الوظائف الحركية ٠

(د) في مجال الإدراك :

تتضح اضطرابات الإدراك فى ظاهرتين هما : الهذاءات (Delusions) والأخابيل (Hailucinations) فأما الهذاء فهو الاعتقاد الخاطئ الذى يؤمن المريض بصحته ، ولايستطيع أحد إقناعه بخطئه للعدول عنه ، والهذاء هذا قد يكون أوليا ، وقد يكون ثانويا يقوم المريض باصطناعه للإيهام أو لفت الإنتباه لاضطراب التفكير والوجدان لديه .

ولما كان حديثنا قد تناول الرجل والمرأة ، لذا فمن الضرورة أن نلقى الضوء على "الغيرة الاضطهادية" .

الغيرة الاضطهادية :

فى الغيرة الاضطهادية يشك الرجل (أو المرأة) فى زوجته دون أن يكون فى جعبته دليلا ماديا أو قرينة .. والمريض ههنا رجل كان أم امرأة لا يعترض على سلوك زوجته بقدر اعتراضه على أن صديقها أعطى لها من الاهتمام مالم يحظ هو به ، فمريض الغيرة الإضطهادية عندما يشك فى وفاء زوجته ، إنما يكون فى واقع الأمر شغوفا بالرجل الآخر (صديق زوجته) ...

الوسواس القهرى :

مريض الوسواس القهرى دائما مايشعر باحساس غريب ينتابه فهو مثلا : إذا ساورته الوسواس بأن يده قد تلوثت ، تراه يهب من فوره فيقوم بغسل يديه ، ولكن سرعان ماتراوده فكرة غسل يديه مرة أخرى فيقوم فيغسلها ، ثم لايلبث أن تعاوده الفكرة من جديد فيسرع الخطوات لغسل يديه للمرة الثالثة ٠٠٠ وهكذا إلى أن يصبح سلوك الغسل سلوكا قهريا ، وقد تمتد الوساوس به إلى التفكير فى قذارة المنشفة الخاصة به ، وهنا ينشأ لديه وسواس جديد ، وهكذا ٠٠٠

وثمة إجماع من كل العلماء بأن الوسواس والقهر بينهما ارتباط ، فإذا كان القهر يتعلق بالانفعال (الحركات) فإن الارتباط بينهما يرجع إلى أن الوساوس تولد القهور ، والقهر يتضمن درجة من الوساوس ، والوساوس تتضمن درجة من القهر ، وقد تكون النسبة متعادلة ٠٠٠

* * * *

الحكم من فوق البرج :

ووجدتنى قبل أن أخرج من مستشـفى الأمـراض النفسية أقف للحظات وأنا أنظر إلى الأفق البعيد وأقـول بلسان صدوق : لقد أصـاب كـل مـن : المتفيقـهين ، والمتنطعين ، والمتعلمين ، والحصفاء ، لاشك أن كل فئـة منهم أدركت الداء عندما تناولت إحدى سلبيات المجتمع ، فما أجملك ياوطنى ، وما أجمل أبناءك الذين ينفعلون مـع الأحداث بحب وشفقة قلما توجـد بيـن أبنـاء الشـعوب الأخرى ...

وتحركت تاركا المكان وأنا مهموم مكدور ، دمعـى يراود أجفانى ، احتبس صوتى بداخلى ، لاأقـوى علـى النظر إلى الخلف مخافة أن أرى الجدران فأتذكر سـاكنى الجدران فيدمى حينذاك قلبى على ماحل بهم وأنا لاحـول ولا قوة لى لاأستطيع أن أدرأ عن نفسى كلاليب المرض ، فكيف لى بأن أدفع بالمرض عنهم ؟ ...

وأخذت أغذو فى السير وأنا لاألوى على شـىء إلا السير وسط الخلائق ، لعلنى حين أراهم ويرونـى يتبـدد همى ، ويهدأ عقلى ، ويطمئن قلبى الجريح ، وتدب فيـه العافية بعد طول ضعف وفتور ... ورغم أننى حـاولت جاهدا أن أرى الناس وهـم يسـيرون من حـولى،

أو أسمع ضجيجهم أو حتى وقع نعالهم علـى الأرض ، إلا أنى أخفقت فيما سعيت إليه ، وتوجست خيفة ، ورحت فى صمت أسأل نفسى قائلا : " أين الضوضاء التى ألفتـها أذناى من زمن ليس بالبعيد ؟ بل أين الناس الذين أتـوق شغفا وشوقا برؤيتهم ؟ أوفقدت أنا البصـر ، وأصـابنى الطرش من شدة حزنـى علـى هـؤلاء الشـعث الغـبر والذين يسيرون فى ركابهم ؟ أم هى ثمة السحب الكثيفـة لمتلبدة التى سرعان ما تذهب متوارية بسقوط الغيث؟"...

لا أدرى كم مر من الوقت وأنا على هذا الحـال ، أهى السويعة أم السويعات؟ ولكن حمدا لله لم يطل المقـام بى كثيرا فسرعان ماسمعت الضجيج عن يمينـى وعـن شمالى ، ومن أمامى ومن خلفـى، ورأيتنـى أقـف أمـام صـرح شامخ عملاق ، آنذاك أخـذت عيناى تتفرسانه بنظرة حلزونية ، تارة من أعلى وأخـرى من أسفل ، فإذا هو برج القاهرة ...

ووجدت نفسى أزاحم مع المتزاحمين للولوج بداخلـه ، إلا أننى لاأعلم البتة أصعدت أنا مع الصاعدين ؟ أم حملنـى أحدهم لما شعر بكم الإعياء الذى اعتلى وجهى ، وبدا من خلال حركاتىالمتفاوتة بين الفتور والضعف ...

ومن أعلى نقطة فوق البرج بـــدأت أنظـــر إلـــى المجتمع ، فرأيت قاعه العريق ، كما رأيت قمته الوهاجـــة ، فإذا هو صغير رغم ضوضائه وأنواره المتلألئة ، إلا أنه كبير عظيم فى قلبى وعقلى اللذين يتسعان لكل مـــا يـــدب على أرضه الطاهرة من أبنية وبشر وحضارات مـــازالت محفورة فى ذاكرتى .. نعم إن قلبـــى وعقلـــى يتســـعان ويحتويانك ياوطنى من أقصاك إلى أقصاك ..

وتوقفت عن النظر من أعلى ، وأخذت أنظر فيمـــا حولى لأعرف مكانى بين الحضور ، فإذا بعينى تقع علـــى رجل وامرأة يتهامسان ، آنذاك قلـــت بصـــوت خفيـــض لا يسمع : " هاهما طرفى الحياة الرجل والمرأة يقفـــان متجاورين يتطلعان إلى المستقبل من ههنا " وســـرعان ماتنحيت ببصرى عنهما إلى الطرف المقابل فوقع البصـــر على طفلين يلعبان ويلهوان وعلامات الســـرور لاتفـــارق وجهيهما حتـــى قفـــز ســـرورهما تباعـــا إلـــى وجـــهى وأنا أراقبهما فى شغف ، وحدثتنى نفسى فقالت : "إنـــهما نتاج طرفى الحياة الرجل والمرأة هـــذان اللـــذان يقفـــان فى الطرف الآخر ، وقتئذ تنحيت ببصرى عنـــهما حتـــى لايشعران أنى أقفوحركتهما بعينى فينصرفان عن لـــهوهما البرىء ، وفضلت ساعتئذ النظـــر أمـــامى ، فلمـــا

فعلـــت رأيـــت سائلى الذى فر من أمامى مـــن قبـل يقف غير بعيد ينظر إلى بعينين لاتقويـــان علـــى النظـر لغيرى ، إلا أننى سلكت مسلك النعامة كما تقول الأسـاطير ، فأغمضت عينى كيلا أراه ويرانى، وفتحتهما بعد قليـــل لأجد أمامي يقف كل مـــن : المـــرأة والرجــل وســائلى والطفلين" ...

وبدأت أتفرس الوجوه التى تقف أمـــامى ، وقبـل أن تتفوه شفتاى ببنت شفة بـــادرنى الجميـــع قـــائلين : " إلى أى شىء وصلت فى رحلتك مع المرض النفســى الذى أضحى يؤرق الغادى والرائح ، والنائم واليقظـــان ، ومن التحفه القبر حتى صار حديـــث الركبـــان فـــى كـل مكان ؟" ...

فلما أدركت فيما قدومهم إلى شعرت بالفرحة تـدب فى أوصالى وقلت لـــــهم : " ياطرفـــى الحيـــــاة إن أحسنتما فـــى زرعكمـــا ، وعزفتمـــا عـــــن الشحنـــاء والبغضاء ، وجمعتكما المودة والرحمـــة كمـا جاء فى كتاب الله صلح المجتمع كله" ...

آنذاك رأيت المرأة تترك جوار زوجـــها وتفضـــل الوقوف إلى جوارى وسرعان ماقالت بصوت عذب حزيــن وهى تشير إلى صاحبها ورفيق عمرها : " ماذا نفعـــل ؟ وليس فى مقدور أحدنا أن يفعل أكثر ممـــا يفعلـــه الآن ؟ أوتدرى أن الرجل والمرأة هذه الأيام يبذلان كـــل الجـــهد حتى لم يبق فى جعبتهما لاالكثير ولا القليل ، حتى صـــار الاثنان معا كالثورين يدفعان الناعورة ليلا ونهارا ، فـــإن توقفا عن عملهما نضـــب المعيـــن ، وجـــف الضـــرع ، وأضحى الزرع موات بوار "

فلما قلت : " اللهم أعلم " ، قال سائلى معقبـــا : " ماذا أفعل وأنا المعلم الذى لايدخـــر وســـعا ولاجـــهدا ولا علما إلا أعطاه لطـــلاب العلـــم أنـــى وجـــدوا عـــن طيب خاطر " ؟ . . .

وانتظرت حتى أسمع حديـــث الـــزوج الـــذى راح يتفرس وجهى ثم قال فى لهفة : " قل وربك وربنـــا ورب كل شىء ماذا نفعل ؟ قل لنا ماهو الداء وماهو الـــدواء ؟ حدثنا عن ملامـــح الطريق الذى يجب علينا السير فيـــه إن أردنا السلامة" . . .

ونظرت إليهم ونظروا إلى وكأنهم يحثوننى على الكلام، إلا أننى بدافع من داخلى لم أقو على ايقافه بادرتهم قائلا : " فلندع حديثنا نحن جانبا ، وليوخز كل منا ضميره ليتكلم بلاشعارات ، وبلا كلام معسول ، فربما نطق ضمير كل واحد فينا بما يعجز لسانه على النطق به ... وماهى إلا اللحظات أو تكاد وخرجت الضمائر من مكامنها بين الجوانح تتنافس فيما بينها تنافس الشوفاء ، إلا أن الضمائر سرعان ما اختارت ضميرى ليتحدث نيابة عنها ، حينذاك وافق ضميرى وأمسك بالقلم وكتب فقال : " نضبت العقول والقلوب حتى صارت خربة ، فلما أضحت خرابا ينعق وينعب فيهما البوم والغربان، وجدهما الشيطان فرصة سانحة له ، عند ذلك أسرع واتخذهما مأوى له ولأعوانه ، وبدأ من فوره ينثر سمومه بين جدرانهما فرحا وطربا ، فلما حاولنا أن نستوقفه ، أو ندفع به بعيدا عن العقول والقلوب ، أو نحرقه بنور إيماننا وعلمنا المزيفين أخفقنا ، آنذاك ضحك الشيطان وقال هيهات ، وقلنا نحن لاحول ولا قوة إلا بالله " ...

واعتلت السعادة والفرحة وجوه الضمائر التى نظرت إلى ضميرى وقالت له فى فرحة " ياأخانا هلاً من مزيد "؟

أسرع ضميرى وقال لهم فى تـــودد : " الأســـرة والمدرسة والجامع إن عرف كل منهم دوره الحقيقى فـــى تنشئة الأجيال ، وأزاح الستار بدت الصورة أكثر وضوحا، عندئذ لم يعرف الخوف طريقا إلى القلوب ، ولم يعــــرف المرض النفسى سبيلا إلى العقــــول ، ويصـــير الرجـــال والشباب والنساء يدفعون بعجلة الحياة بقوة فيزداد لدفعها سرور القلوب والعقول ، آنذاك يلملـــم الشـــيطان المـــارد اللئيم وأعوانه أذيال الخزى والعار هاربين يبحثون عـــن قلوب وعقول تكون غير عامرة بحب الله ، عقول هشــــة غير مستنيرة بنور العلم الزاخر الذى يحـــول بـــإذن الله الفيافى الجرداء إلى جنات خضراء" . . .

فلما هتفت الضمائر وقالت : " كيـــف ؟ " قـــال ضميرى : " فلتعلم الأسرة أنها الأرض التى تتلقـــى أولا البذرة بأمر الله تعالى ، فإن كانت الأسرة خصبة ســـمات طرفيها المودة والرحمة والتفاهم والحب والحنان تعـــهدت الأبناء بالرعاية الكاملة دون فتـــور أو تـــوان ، حينـــذاك ينضر زرعهما ويصير حديث الغادى والرائح مـــن أبنـــاء الوطن ، ولاخوف على الأبناء ههنا من الشطط ، ولا مـــن انحراف عقولهم ، وكيف تنحرف عقول الأسوياء بعد كـــل هذه الرعاية ؟ "

ولتعلمى أيتها الضمائر اليقظة أن المدرسة هى الوجه الثانى للأسرة ، إن جعلت من نفسها بستانا ، وتخلى معلموها عن أنانيتهم ، وكفوا عن جمع المال بالطرق المشروعة وغير المشروعة ، حتى ولو كان السبيل إلى ذلك هو سفك الدماء ، وهتك الأعراض ، ونهش الأكباد ، وانتبهوا للرسالة كما كانوا من قبل ، لتبدد خوف الطلاب ، وصاروا منتظمين لامتسربين، وأقبل الطلاب على العلم إقبال الظامىء على الماء البارد فى اليوم القائظ " . . .

ولتعلمى أيتها الضمائر التواقة دائما إلى معرفة الحقيقة أن الجامع هو البداية والنهاية ، هوالأولى والآخرة ، هو الدنيا والعمل الصالح ، وإن كنتم فى شك فلتذهبوا إلى القبور ولتسألوا ثراها عن الجهابذة الأفذاذ : جمال الدين الأفغانى ، ورفاعة الطهطاوى ، ومحمد عبده، وحفنى ناصف ، وطه حسين ، وعبد الحليم محمود وغيرهم من الدعاة والأساتذة الذين افتقدناهم بعدما أضاعوا من حولنا الشموع ، فإن غشيت أبصاركم العماوة ولم تستطيعوا الوقوف على الحقيقة فاسمعوا قول الله تعالى : ❋ وَمَن أعرضَ عن ذِكْرى فَإنَّ لهُ مَعيشةَ ضنكاً ونحشرُهُ يومَ القيامةِ أعمى ، قالَ ربِ لِمَ حشرتنى أعمى وقدْ كُنتُ بصيراً ، قالَ كذلِكَ أتتكَ آياتُنا فنسيتها وكَذلِكَ اليْومَ تُنسَى ❋ سورة طه ، من الآية ١٢٤-١٢٦.

بكت الضمائر وانتحبت ، وبكى ضميرى وانتحب لبكاؤهم ونحيبهم ، وسرعان ما اختفت الضمائر وعادت مرة أخرى بين الجوانح .. آنذاك اقترب الرجل والمرأة منى فصافحانى وودعانى وداع الانصراف وكلاهما يدرك تماما فحوى رسالته فى الحياة ، وانطلقا ومن ورائهما الطفلان وهما يتقافزان فى فرحة بأبويهما .. فلما غادر الرجل والمرأة والطفلان المكان ، اقترب منى سائلى يصافحنى ويودعنى هو الآخر والخجل يعتلى وجهه والدمعة الحزينة تكاد تذرف من عينيه...

لعله أدرك الحقيقة الآن التى كانت خافية عنه فيما مضى ، أو لعله أدرك أنه ظلمنى عندما صور له عقله من قبل وأنا أحدث ضميرى ويحدثنى أن عقلى قد ذهب أدراج الرياح ، حينذاك أطلق لقدميه العنان وتركنى بمفردى وفضل الهروب عن مصاحبتى فى الرحلة ، وهاهو اليوم يعود ليستفسر عما تمخضت عنه الرحلة ...

ونظرت فإذا بجلسائى قد أنفضوا من حولى ، ساعتئذ تحركت تاركا المكان وأنا أحدث قلمى

حديث الخليل لخليله ، فطلبت منه أن يتحد معـى لنتبنـى سويا قضية هؤلاء الشعث الغبر ، فلما أجـاب لمطلبـى قلت : " من يدرى لعل كلماته وكلمـاتى تصـلان إلـى الخلائق فيهبوا من سباتهم العميق بعدما يدركون الخطـر قبل أن يستشرى" ...

* * * *

المراجع :

- التنشئة التوالدية والأمراض النفسية ، للدكتور علاء الدين كفافى ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان .
- المعتقدات والاتجاهات نحو المرض النفسى ، للدكتور / عبد اللطيف محمد خليفة ، قسم علم النفس جامعة القاهرة ١٩٩٢ .
- القرآن الكريم .
- تفسير بن كثير .

المحتويات

مكتب النيل للطبع والنشر

١٢ شارع عبده بدران

ميدان الباشا - المنيل

ت : ٣٦٢٢٥٧٨

رقم الايداع ٩٧/١٥٢٩٠

الترقيم الدولى

١ - ٠٩ - ٥٤١٤ - ٩٧٧

تليفون المؤلف ٢٥٣٤٤٣٢